من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم

(١)

دكتور يوسف القرضاوي

الصبر في القرآن

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - ت - ٣٩١٧٤٧٠

من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم

الدكتور يوسف القرضاوي

الصبر في القرآن

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - ت - ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الثالثة

١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م

فالكون للدعاية والإعلان

٥ شارع البطل أحمد عبد العزيز ت : ٣٩٢٧٦٢٦



مقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه .

أما بعد . .

فإن القرآن كتاب الله الخالد ، ودستور الإسلام الجامع ، وآية الرسول العظمى ، ومعجزته الباقية الكبرى . وهو مصدر الإسلام الأول ، عقيدة وشريعة ، وأخلاقاً وآداباً ، أودعه الله من كنوز المعرفة ، وأسرار الحق ، وأصول العدل ، ومناهج الخير ، وضوابط السلوك ، وقواعد الهداية والتشريع ، ما ينطق بأنه : ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (١).

إنه الهدى والضياء ، والعلاج والشفاء ، للناس عامة ، وللمؤمنين خاصة : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) . لهذا يجب أن تستمد من معينه فلسفة الحياة ، ونظام الحياة ، فلا يصح الاعتقاد ، ويقبل التعبد وتطهر الأخلاق ، وتزكو الأنفس ، وتستقيم الأفكار ، وينتظم التعامل ، ويتحقق العدل ، ويسعد الفرد ، ويرقى المجتمع ، إلا إذا بنى ذلك كله على أساس من هداية القرآن .

ولقد جهد العلماء من السابقين واللاحقين جهدهم ، أن يتواصوا على أسرار هذا الكتاب المجيد ، ويستخرجوا لآلئه ، وينبشوا عن كنوزه ، كل فى مجال اختصاصه ، وميدان اهتمامه ، ففتح الله لهم ما شاء من أسرار هذا الكتاب ، وأفاض عليهم من ذلك ما تحتمله طاقة البشر ، وما يلائم الزمان والمكان والحال ، وظهرت عشرات ، بل مئات من التفاسير ، مختلفة المشارب ، متنوعة المذاهب ، متعددة الألوان ، ما بين طويل مبسوط ، ووجيز مختصر ،

---

(١) فصلت : ٤٢ .　　(٢) يونس : ٥٧ .

ووسيط بين البسط والاختصار . منها ما اعتمد على النقل والرواية ــ ومنها ما اعتمد على الرأى والدراية ، ومنها ما جمع بينهما.

منها ما تحررمن المذهبية ، ومنها ما غلب عليه طابع خاص : كلامي أو فقهي أو صوفي . بل منها ما خرج عن حدود اللغة وأصول الشرع ، فضلاً عن سواء السبيل : كتفاسير الباطنية .

وظهرت بجوار التفاسير الكاملة للقرآن ، أنواع أخرى من المؤلفات والدراسات لخدمة القرآن وبيانه للناس .

وذلك مثل المؤلفات فى « أحكام القرآن » أو فى « علوم القرآن » بصفة عامة ، أو فى فرع أو نوع خَاص منها ، مثل : إعجاز القرآن ، أو مجاز القرآن ، أو القراءات وما يتعلق بها ، أو أصول التفسير . . . إلى غير ذلك من ألوان العلوم التى تنتسب إلى القرآن ، وتقصد إلى خدمته .

وفى عصرنا برز لون جديد من ألوان الدراسات القرآنية ، وإن شئت قلت : لون جديد من التفسير للقرآن ، وهو تفسير القرآن ، حسب الموضوعات التى اشتمل عليها ، وهو ليس تفسيرا بالمعنى الاصطلاحى المألوف ، بل هو جمع للآيات الواردة فى الموضوع فى مختلف سور القرآن ، ثم تصنيفها ، والاستنباط منها أو التعقيب عليها . وقد عرفنا منها نموذجاً فى القديم يتمثل فى كتاب « التبيان فى أقسام القرآن » للإمام ابن القيم .

أما حديثاً فرأينا ذلك فى كتاب «الوحى المحمدى » للسيد رشيد رضا . حيث تحدث فيه عن مقاصد القرآن ، وفصلها فى ثمانية مقاصد . استشهد لكل مقصد منها بالآيات المتعلقة به .

ورأيناه فى رسالتين للشيخ محمود شلتوت ، شيخ الأزهر الأسبق، وهما: « القرآن والقتال » و « القرآن والمرأة » .

ورأينا فى هذا المجال أكثرمن كتاب للأستاذ عباس محمود العقاد مثل : «المرأة فى القرآن الكريم » و « الإنسان فى القرآن الكريم » وكذلك « الفلسفة القرآنية ».

وللمغفور له الشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز كتابه القيم « دستور

الأخــلاق فى القرآن » الذى ألفه بالفرنسية ، وحصل به على درجة الدكتوراة من السوربون ، وترجمه أخيراً الدكتور عبد الصبور شاهين إلى العربية .

ومــن هـذا اللون بعض كتب الأستاذ محمد عزت دروزة مثل :« الدستور القرآنى فى شئون الحياة » و « سيرة الرسول : صور مقتبسة من القرآن » و« القرآن والضمان الاجتماعى » ومن ذلك كتاب الأستاذ محمد شديد « التربية فى القرآن الكريم ».

وكتب ورسائل أخرى تتناول موضوعاً أو أكثر مــن موضوعات القرآن بالشرح والتحليل .

ورأيى أن هذا اللون من الدراسات القرآنية جد نافع ، وخاصة فــى عصرنا، ولا يغنى عنه وجود التفاسير الكاملة للقرآن كله على النسق المألوف .

وذلك لأن التوفُّر على موضوع واحد معين ، وتتبع موارده ومآخذه فى القرآن كله ، مكيه ومدنيه ، لتجلية جوانبه كلها ، يهيئ لــه من العناية والبيان والدراسة ، ما لا يتهيأ له لو درس أثناء التفسير الكلى العام .

كما أن هــذا النــوع من التفسير يفسح المجال للدارسين فى شتى التخصصات ، ليحاول كل منهم تجلية ما يتعلق باختصاصه من القرآن بصورة أعمق مما لو تناوله غيره .

فرجل الفقه يعنى بآيات التشريع والأحكام والحدود . . . إلخ .

ورجل الاقتصاد يعنى بآيات المال والإنتاج والتوزيع والإنفاق .

ورجل الفلك أو الفيزياء يهتم بالآيات الكونية .

ورجل التربية يعنى بآيات التوجيه والإرشاد والقصص وغيرها. . . وهلم جراً.

وهكذا يعنى كل متخصص بموضوع تخصصه ومجال اهتمامه ، ويركز عليه ، ويجدد بما أوتى من علم وفى هذا فائدة أكبر .

وأمر ثالث : وهو أن تتابع هذا اللون من التفسير أو الدراسة خليق أن يبين للناس لوناً جديداً من الإعجاز ، يتمثل فى معنى القرآن وحضريته ، وسعــة ما احتوى من موضوعات قيمة تعد بالمئات ، بل بالآلاف ، مع أنه كتاب محدود الصفحات ، ويوضع فى« الجيب» ، وأن الذى أتى به رجل أمى فى أمة أمية.

وإيمـاناً منى بهـذه الفكرة شرعت أكتب عن بعض الموضوعات القرآنية على هـذا النسق ، وها أنذا أقدم اليوم نموذجاً منها ، وهـو « الصبر فى القرآن » آملاً أن تتبعـه نماذج أخرى ، بتوفيق الله تعالى وعونه ، سائلاً الله تعالى أن يكـون فيـه ما يساعـدنا على الاهتداء بنـور القـرآن ، والاعتصام بحبلـه ، والاستقامـة على صراطه ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب .

د . يوسف القرضاوى

* * *

الفصل الأول

حَقِيقَةُ ٱلصَّبْرِ فِى ٱلْقُرْآنِ وَضَرُورَتُهُ

● كم ذُكِرَ الصبر فى القرآن ؟

الصبر من أبرز الأخلاق القرآنية التى عنى بها الكتاب العزيز فى سوره المكية والمدنية . وهو أكثر خلق تكرر ذكره فى القرآن .

يقول الإمام الغزالى فى كتاب « الصبر والشكر » من « ربع المنجيات » من كتابه « إحياء علوم الدين » : ذكر الله تعالى الصبر فى القرآن فى نيف وسبعين موضعاً [1] .

وينقل العلامة ابن القيم فى « مدارج السالكين » عن الإمام أحمد قوله : الصبر فى القرآن فى نحو تسعين موضعاً [2] .

وكذلك ينقل أبوطالب المكى فى « قوت القلوب » عن بعض العلماء قوله : أى شئ أفضل من الصبر ، وقد ذكره الله تعالى فى كتابه فى نيف وتسعين موضعاً ؟ !

ولا نعلم شيئاً ذكره الله تعالى هذا العدد إلا الصبر [3] .

والناظر فى « المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم » يجد مادة (ص ب ر) بكل مشتقاتها قد وردت فى القرآن مائة مرة وبضع مرات .

ولا تنافى ـ فى رأيى ـ بين هذة التقديرات على اختلافها ، وبين الإحصاء الرقمى للمعجم المفهرس ، لأن الموضع الواحد قد تذكر فيه مادة (ص ب ر) أكثر من مرة ، فيحسبها بعضهم موضعاً واحداً ، وبعضهم موضعين أو أكثر . مثال ذلك فى قوله تعالى فى أواخر سورة النحل : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُم فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ

---

(١) إحياء علوم الدين جـ ٤ ص ٦١ ، ط. دار المعرفة ببيروت

(٢) مدارج السالكين جـ ٢.

(٣) قوت القلوب جـ ١ ص ١٩٧.

مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، ولَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ للصَّابِرِينَ * واصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إلاَّ باللَّهِ﴾ (١) . فالمادة هنا ذكرت أربع مرات فى آيتين ، بحيث يمكن أن تُحسب موضعاً واحداً ، وأن تحسب موضعين باعتبارين . وفى قصة موسى مع العبد الصالح فى سورة الكهف (٢) تردد ذكر الصبر عدة مرات ، ويمكن اعتبارها كلها موضعاً واحداً .

وقوله تعالى :﴿ والصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ ﴾ (٣) موضع واحد بلا شك ... وهكذا .

والصبر فى اللغة : الحبس والكف . ومنه : قُتِلَ فلان صبراً ، إذا أُمسك وحُبس .

ومنه قوله تعالى : ﴿ واصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ (٤) أى احبس نفسك معهم .

ويقابل الصبر : الجزع . كما فى قوله تعالى على لسان أهل النار: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴾ (٥) .

وهو فى القرآن يعنى : حبس النفس على ما تكره ، ابتغاء مرضاة الله . كما قال تعالى : ﴿ والَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ (٦) .

* * *

● أنواع الصبر فى القرآن :

وما تكرهه النفس أنواع وألوان شتى ، ولهذا تتسع دائرة الصبر فتشمل مجالات رحبة أكثر مما يقف عنده ـ عادة ـ كثير من الناس إذا ذُكرت كلمة « الصبر » .

يقول الإمام الغزالى : « اعلم أن الصبر ضربان أحدهما : ضرب بدنى ، كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها ، وهو إما بالفعل ، كتعاطى الأعمال الشاقة ، إما من العبادات أو من غيرها . وإما بالاحتمال كالصبر على الضرب الشديد ، والمرض العظيم ، والجراحات الهائلة » .

---

(١) النحل : ١٢٦ ، ١٢٧
(٢) الكهف : ٦٧ وما بعدها
(٣) الأحزاب : ٣٥
(٤) الكهف : ٢٨
(٥) إبراهيم : ٢١
(٦) الرعد : ٢٢

قال الغزالى : « وذلك قد يكون محموداً إذا وافق الشرع .

ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر ، وهو الصبر النفسى عن مشتهيات الطبع ، ومقتضيات الهوى .

ثم هذا الضرب إن كان صبراً عن شهوة البطن والفرج سمى عفة .

وإن كان عن احتمال مكروه اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذى غلب عليه الصبر .

فإن كان فى مصيبة اقتصر على اسم « الصبر » وتضاده حالة تسمى «الجزع والهلع » وهو إطلاق داعى الهوى ليسترسل فى رفع الصوت ، وضرب الخدود ، وشق الجيوب وغيرهما .

وإن كان فى احتمال الغنى سمى « ضبط النفس » وتضاده حالة تسمى « البطر » .

وإن كان فى حرب ومقاتلة سمى « شجاعة » ويضاده « الجبن » .

وإن كان فى كظم الغيظ والغضب سمى « حلماً » ويضاده « التذمر » .

وإن كان فى نائبة من نوائب الزمان مضجرة ، سمى « سعة الصدر» ويضاده « الضجر والتبرم وضيق الصدر » .

وإن كان فى إخفاء كلام سمى « كتمان السر » وسمى صاحبه « كتوماً » .

وإن كان عن فضول العيش سمى « زهداً » ويضاده « الحرص » .

وإن كان صبراً على قدر يسير من الحظوظ سمى « قناعة » ويضاده « الشره » .

فأكثر أخلاق الإيمان داخل فى الصبر .

ولذلك لما سئل عليه الصلاة و السلام مرة عن الإيمان قال : « هو الصبر » لأنه أكثر أعماله وأعزها . كما قال : « الحج عرفة » .

وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك ، وسمى الكل صبراً فقال تعالى : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ (أى المصيبة) وَالضَّرَّاءِ (أى الفقر) وَحِينَ الْبَأْسِ (أى المحاربة) أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (١)

---

(١) البقرة : ١٧٧ .

فإذن هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها ، ومن يأخذ المعانى من الأسامى يظن أن هذه الأحوال مختلفة فى ذواتها وحقائقها ، من حيث رأى الأسامى مختلفة ، والذى يسلك الطريق المستقيم ، وينظر بنور الله تعالى يلحظ المعانى أولاً ، فيطلع على حقائقها ، ثم يلاحظ الأسامى ، فإنها وضعت دالة على المعانى . فالمعانى هى الأصول والألفاظ هى التوابع . ومن يطلب الأصول من التوابع لابد أن يزل » ا. هـ (١)

وهذا كلام نفيس ، وتحقيق جليل .

ومن هنا نفهم كيف جعل القرآن الصبر وحده مناط الفلاح فى الآخرة ، ودخول الجنة واستحقاق التحية من الملائكة ، وذلك فى مثل قوله تعالى فى شأن الأبرار من عباده : ﴿ وَجَزَاهُم بِمَاصَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيراً ﴾ (٢) ، وفى شأن عباد الرحمن : ﴿ أُوْلَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ (أى الجنة) بِمَاصَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَاتَحِيَّةً وَسَلاماً ﴾ (٣) ، وفى شأن أولى الألباب من عباده الأخيار : ﴿ وَالْمَلائِكَةُ يَدخُلُونَ عَلَيْهِم مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (٤) فالصبر هنا يحمل فى طياته جملة شعب الإيمان ، وأخلاق الإسلام .

* * *

● **الصبر خصيصة إنسانية :**

ولما كان الإنسان هو المخلوق العاقل المكلف المبتلى ، كان الصبر خصيصة من خصائصه المميزة .

يقول الإمام الغزالى فى تحليل معنى الصبر وبيان حقيقته : « الصبر خاصية الإنس ، ولا يُتصور ذلك فى البهائم ولا الملائكة ، أما البهائم فلنقصانها. وأما الملائكة فلكمالها .

وبيانه :أن البهائم سُلطَتْ عليها الشهوات ، وصارت مُسَخَّرة لها ، فلا باعث لها على الحركة والسكون إلا الشهوة ، وليس فيها قوة تصادم الشهوة وتردها عن مقتضاها ، حتى يسمى ثبات تلك القوة فى مقابلة مقتضى الشهوة «صبراً».

---

(١) إحياء علوم الدين جـ ٤ ص ٦٦ ـ ٦٧.
(٢) الإنسان : ١٢ .
(٣) الفرقان : ٧٥ .
(٤) الرعد : ٢٣ ـ ٢٤ .

وأما الملائكة عليهم السلام ، فإنهم جُرِّدوا للشوق إلى حضرة الربوبية ، والابتهاج بدرجة القُرب منها ، ولم تُسلط عليهم شهوة صارفة صادَّة عنها ، حتى يحتاج إلى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف .

وأما الإنسان فإنه خُلِقَ فى ابتداء الصبا ناقصاً مثل البهيمة ، لم يُخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذى هو محتاج إليه ، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والريبة ، ثم شهوة النكـــاح (الشهوة الجنسية) على الترتيب . وليس لـه (يعنى فى طفولته) قوة الصبر ألبتة ، إذ الصبر عبارة عن ثبات جند فى مقابلة جند آخر، قام القتال بينهما ، لتضاد مقتضياتهما ومطالبهما . وليس فى الصبى إلا جند الهوى كما فى البهائم » .

ثم يبين الإمام الغزالى أن الله تعالى بفضله وسعة جوده ، أكرم الإنسان ورفع درجته عن البهائم ، فأمده - عند مقاربة البلوغ - بقوتين : قوة تهديه إلى معرفة الحقائق الكبيرة ، بها يعرف الله ورسوله ، ويعرف المصالح المتعلقة بالعواقب ، وبها يتميز عن البهيمة التى لا تهتدى إلا إلى مقتضى شهواتها فى الحال فقط . فصار الإنسان بنور الهداية يعرف أن اتباع الشهوات له مغبات مكروهة فى العاقبة.

وقوة أخرى مكملـــة للأولى تؤيـــد الإنسان وتشد أزره فى معركته مع الهوى وجند الشيطان ، بـــها يـــدفع فى نحر الشهوات فيجاهدها بتلك القوة ، حتى يدفع عداوتها عن نفسه .

قال الغـــزالى : « فلنسم هذه الصفة التى بها فارق الإنسان البهائم فى قمـــع الشهـــوات وقهـــرها « باعثاً دينياً » ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتـها « باعث الهـوى » ، وليفهم أن القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى ، والحرب بينهما سجال . ومعركة هذا القتال قلب العبد . ومدد باعث الدين من الملائكة الناصـــرين لحزب الله تعالى ، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعـــداء الله تعالى . فالصبر عبـــارة عن ثبات باعث الـــدين فى مقابلـــة باعث الشهـــوة . فإن ثبت حتى قهره واستمـــر على مخالفـــة الشهـــوة فقـــد نصر حزب الله ، والتحق بالصابرين . وإن تخاذل وضعف حتى

غلبته الشهوة ولم يصبر فى دفعها التحق بأتباع الشياطين » ا هـ [1] .

* * *

● **ضرورة الصبر :**

وترجع عناية القرآن البالغة بالصبر ، إلى ما له من قيمة كبيرة دينية وخُلُقية ، فليس هو من الفضائل الثانوية أو المكَمِّلة ، بل هو ضرورة لازمة للإنسان ليرقى مادياً ومعنوياً ، ويسعد فردياً واجتماعياً ، فلا ينتصر دين ، ولا تنهض دنيا إلا بالصبر .

فالصبر ضرورة دنيوية كما هو ضرورة دينية .

فلا نجاح فى الدنيا ، ولا فلاح فى الآخرة إلا بالصبر .

فى الدنيا ، لا تتحقق الآمال ، ولا تنجح المقاصد ، ولا يؤتى عمل أكله إلا بالصبر . فمن صبر ظفر ، ومن عدم الصبر لم يظفر بشئ ..

لولا صبر الزارع على بذره ما حصد ، ولولا صبر الغارس على غرسه ما جنى ، ولولا صبر الطالب على درسه ما تخرج ، ولولا صبر المقاتل فى ساح الوغى ما انتصر . وهكذا كل الناجحين فى الدنيا إنما حققوا آمالهم بالصبر ، استمرأوا المر ، واستعذبوا العذاب ، واستهانوا بالصعاب ، ومشوا على الشوك ، وحفروا الصخور بالأظافر ، ولم يبالوا بالأحجار تقف فى طريقهم . والطعنات تغرس فى ظهورهم ، وبالشراك تنصب للإيقاع بهم ، وبالكلاب تنبح من حولهم ، بل مضوا فى طريقهم غير وانين ولا متوقفين . مغضين الأعين على القذى ، ساحبين الذيول على الأذى ، متذرعين بالعزيمة ، مسلحين بالصبر .

وما أصدق قول الشاعر :

وقَلَّ مَنْ جَدَّ فى أمرٍ يحاولـه ... واستصحبَ الصبرَ إلاَّ فازَ بالظفر

قد يعثرون ثم لا يلبثون أن ينهضوا ، وقد يخطئون ثم يوشكون أن يصيبوا . وقد يجرحون ثم لا يلبث جرحهم أن يندمل . وقد يفشلون مرة ومرة فلا يلقون السلاح ، ولا يستسلمون لليأس ، ولا يفقدون نور الأمل . شعارهم قول الشاعر الحكيم :

---

(١) إحياء علوم الدين جـ ٤ ص ٦٢-٦٣ .

لا تيأسن و إن طالت مطالبة

إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا

أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته

ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

لقد عرف عُشّاق المجد ، وخُطّاب المعالى ، وطُلاّب السيادة ، أن الرفعة فى الدنيا كالفوز فى الآخرة ، لا تنال إلا بركوب متن المشقات ، وتجرع غصص الآلام ، والصبر عن كثير مما يحب ، وعلى كثير مما يكره . وبدون هذا لا يتم عمل ، ولا يتحقق أمل، ومن تخيل غير هذا الطريق كان كالذى قال لابن سيرين : إنى رأيتنى فى النوم أسبح فى غير ماء ، وأطير بغير جناح ! ! فقال له : أنت رجل كثير الأمانى والأحلام ، تتمنى ما لا يقع ، وتحلم بما لا يتحقق !!

وفى شعر الحكم نقرأ كثيراً فى هذا المعنى . يقول أحدهم

لا تحسب المجد تمراً أنت آكله

لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

ويقول المتنبى ، وقد كان طموحاً لمنصب الولاية :

لا يبلغ المجد إلا سيد فطن

لما يشق على السادات فعّال

لولا المشقة ساد الناس كلهم

الجود يفقر والإقدام قتّال !

وفى قصيدة أُخرى يقول مخاطباً نفسه :

ذرينى أنل ما لا ينال من العلا

فصعب العلا فى الصعب والسهل فى السهل !

تريدين إدراك المعالى رخيصة

ولابد دون الشهد من إبر النحل !

وإذا كانت هذه طبيعة الطريق الموصلة إلى العلا والمجد ، فلا سبيل إلى اجتيازها إلا بالصبر ، ولا يقدر عليها إلا الصابرون .

والصبر مفتاح ما يُرجى
وكل صعب به يهون
فاصبر وإن طالت الليالى
فربما أسلس الحرون
وربما نِيل باصطبار
ما قيل : هيهات لايكون

هذا إذا نظرنا إلى النجاح فى الدنيا . فكيف إذا نظرنا إلى الفلاح فى الآخرة ؟ !

إن الحاجة إلى الصبر تبدو هنا أوكد ، والضرورة إليه أشد وألزم .

يقول أبو طالب المكى فى كتابه « قوت القلوب » : « اعلم أن الصبر سبب دخول الجنة ، وسبب النجاة من النار، لأنه جاء فى الخبر :« حُفت الجنة بالمكاره ، وحُفت النار بالشهوات » . فيحتاج المؤمن إلى صبر على المكاره ، ليدخل الجنة ، وإلى صبر عن الشهوات ، لينجو من النار » (١) .

وفى مقام آخر يقول : « واعلم أن كثرة معاصى العباد فى شيئين : قلة الصبر عما يحبون ، وقلة الصبر على ما يكرهون » (٢) .

الصبر إذن ضرورة للناس عامة ، وللمؤمنين خاصة .

والقرآن يشير إلى ضرورة الصبر وأهميته ، حين يحدثنا عن خَلْق الإنسان وما حُفَّ به من ابتلاء ومكابدة ومعاناة .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ ﴾ (٣) ويقول : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ (٤) أى فى شدة ومشقة ، لما يعانيه منذ مولده من شدائد الحياة الممزوجة اللذات بالآلام ، وما يعانيه بعد بلوغه من الابتلاء بالمسئولية وأمانة التكليف ، التى تنوء بحملها السموات والأرض والجبال ، وما يعانيه من الناس من حدة اللسان ، وأذى اليد وحسد النفس .

* * *

(١) قوت القلوب جـ ١ ص ٢٠٠ .
(٢) المرجع السابق ص ١٩٩ .
(٣) الإنسان : ٢ .
(٤) البلد : ٤ .

• ضرورة الصبر للمؤمنين :

وإذا كان هذا شأن الإنسان بصفة عامة ، فأهل الإيمان - على وجه خاص - أشد تعرضاً للأذى والمحن والابتلاء فى أموالهم وأنفسهم وكل عزيز لديهم ، فقد اقتضى نظام الكون أن يكون لهم أعداء يمكرون بهم ويكيدون لهم ويتربصون بهم الدوائر ، كذلك جعل الله لآدم إبليس ، ولإبراهيم نمروذ ، ولموسى فرعون ، ولمحمد أبا جهل وأمثاله : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾(١) ، ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنْسِ والْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ﴾ (٢) .

وكذلك يكون المؤمنون من أتباع الأنبياء ، هم أشد الناس بلاء بعد الأنبياء : الأمثل فالأمثل .

ومن ظن أن طريق الإيمان مفروشة بالأزهار والرياحين ، فقد جهل طبيعة الإيمان بالرسالات ، وطبيعة أعداء الرسالات .

ولعل هذا الحسبان أو الوهم داخل نفوس بعض المؤمنين فى العهد المكى بعد أن أصابهم من العذاب ما أصابهم ، فنزل قوله تعالى فى سورة العنكبوت : ﴿ آلم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَيُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٣).

بل فى العهد المدنى نجد القرآن المدنى ينفى مثل هذا الحسبان الواهم ، فى مثل قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُم ، مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ، أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (٤) .

الجنة إذن لا بد لها من ثمن ، وهى سلعة غالية ، فلا مفر من الثمن . وقد دفعه أصحاب الدعوات من قبل ، فلا بد أن يدفعه إخوانهم من بعد . وهذا هو ثمن الجنة : الصبر على البأساء تصيب الأموال ، والضراء تصيب الأبدان ،

---

(١) الفرقان : ٣١ (٢) الأنعام : ١١٢

(٣) العنكبوت : ١ - ٣ (٤) البقـرة : ٢١٤

والزلزلة تصيب النفوس . ولا بد أن يبلغ هذا الزلزال النفسى من الشدة إلى حد يقول عنده الرسول - أى رسول - والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟ يستبطئونه فقد طال انتظارهم له ، وطالت فترة الأذى عليهم وطالت شماتة العدو بهم ، فمتى يجئ إذن نصر الله الموعود ؟ !

وفى أعقاب غزوة أحد ، التى مَسَّ المسلمين فيها من القرح ما مَسَّهم ، وفقدوا سبعين شهيداً من أبطالهم ، ينزل القرآن فيقول : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١) .

وفى سورة التوبة : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ (٢) .

ومن هنا أمر القرآن المؤمنين أن يستعينوا بعدتى الصبر والصلاة على ما يواجههم من محن فى سبيل دعوتهم ، فقال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٣) . ثم عزاهم فيمن فقدوا من أحبابهم ممن اتخذهم الله شهداء فقال : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ، بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ (٤) .

ثم بيَّن ما ينتظرهم من ألوان البلاء ، مؤكداً ذلك بلام القسم ونون التوكيد ، إذ يقول : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾(٥) .

فالبلاء هنا بلاء عام ، يصيب القلوب بالخوف ، والبطون بالجوع ، والأموال بالنقص ، والأنفس بالموت ، والثمرات بالآفات . ومن لطف الله تعالى ورحمته هنا أنه جعل البلاء : ﴿ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ .... ﴾ الخ ، وتنكير « شئ » هنا - كما يدل عليه السياق - للتقليل والتحقير ، لأن ما هو

(١) آل عمران : ١٤٢
(٢) التوبة : ١٦
(٣) البقرة : ١٥٣
(٤) البقرة : ١٥٤
(٥) البقرة : ١٥٥ ، ١٥٦

أكثر وأكبر لا يطيقونه ، فمسَّهم بشئ قليل من البلاء ، تخفيفاً عنهم ، ورحمة بهم ، وتقديراً لضعفهم .

ومثل هـــذا التأكيد على ضرورة البلاء للمؤمنين خاصة،ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِى أَمْوَالِكُمْ وأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً ، وإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ (١) .

وهنا عدة ملاحظات فى هذه الآية الكريمة جديرة بالانتباه والتسجيل :

الأولى : أن الله تعالى وصف الأذى المسموع من أهل الكتاب والمشركين بالكثرة ﴿ أَذىً كَثِيراً ﴾ ، وهذا يدل على أن حرباً كلاميـــــة ستُعلن علـى أهل الإيمــان ، لتشويــه دعوتهــم ، وتلويث سمعتهــم ، والتشكيــك فى سيرتهم وسريرتهم ، وهى حرب أسلحتها الدس والتحريف والافتراء ، فلا بد أن يوطن المؤمنون أنفسهم على احتمال مكارهها ، ويصبروا على تجرع غصصها ، حتى يحــق الله الحــق ويُبطل الباطل .

الثانية : أن الآية قرنت هنا بين الصبر والتقوى ، فلم تكتف من المؤمنين بالصبر وحده حتى يجمعوا على تقوى الله تعالى . ومعنى التقوى هنا : التعفف عن مقابلة الخصوم بمثل أسلحتهم الدنيئة ، فلا يواجَه الدس بالدس ، ولا الافتراء بالافتراء ، لأن المؤمنين تحكمهم قيمهم الأخلاقية فى السلم والحرب والرخاء والشدة .

الثالثة : أن الآية قرنت كـــذلك بين الـــذين أُوتوا الكتاب ـ من اليهــود والنصارى ـ وبين الذين أشركوا من الوثنيين العرب ومن على شاكلتهم ، هذا مع اختلاف الفريقين فى الدين والوجهة . وفى هذا إشارة إلى أن عداوتهم لأهل الإسلام وحدَّت بينهم على ما بينهم مـن اختــلاف . وهذا ما أثبته التاريخ قديماً ، وأثبته الواقع حديثاً . أثبته التاريخ حينما وجدنا اليهود ـ وهم أهل كتاب ـ

(١) آل عمران : ١٨٦ .

ينضمون إلى جهة المشركين عُبّاد الأوثان من قريش وغطفان وغيرهما فى حرب النبى ﷺ ، إلى غير ذلك من وقائع التاريخ .

وأثبته الواقع المعاصر ، حيث وجدنا اليهودية العالمية ، والشيوعية الدولية ، والصليبية الغربية والشرقية تختلف فيما بينها أشد الاختلاف ، ثم تتناسى هذا كله حين يكون العدو هو الإسلام ، فتجتمع كلمتها على حرب أمة الإسلام ودعوة الإسلام . وهـذا مصداق ما جـاء فى القـرآن : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾(١) ، ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (٢)

ومن هنا قرر فقهاؤنا : أن الكفر كله ملة واحدة .

* * *

● ضرورة المحن لأهل الإيمان :

وإنما كانت المحن ضرورة لأهل الإيمان لجملة معان وحكم نبّه عليها القرآن ، وخصوصاً فى أعقاب غزوة أحد ، منها :

١ ـ تطهير الصف المؤمن من أدعياء الإيمان من المنافقين والذين فى قلوبهم مرض . فإبّان العافية والسراء يختلط فيها الحابل بالنابل ، والخبيث بالطيب ، وإنما يقع التمييز بين الأصيل والدخيل بالمحن والبلاء ، كما يتميز الذهب الحقيقى من الزائف بالامتحان بالنار .

وفى هـذا يقـول القرآن فى سورة آل عمران التى نزل نحو ثمانين آيـة منها بعد أحد : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ (٣).

إن من الناس من يدخل فى زمرة المؤمنين ويلبس لبوسهم ، ويتكلم بلسانهم فإذا أصابته فتنة أو محنة فى سبيل دينه ، خارت قواه ، وانحلت عراه ، وبرئ مما كان يَدّعيه من قبل .

---

(١) الأنفال : ٧٣

(٢) الجاثية : ١٩

(٣) آل عمران : ١٧٩

وفى هذا النموذج من البشر يقول القرآن : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ، أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ (١) .

ونحو هذا النموذج الذى يقول بلسان مقاله ما يكذبه لسان حاله ، نموذج آخر ذكره القرآن فى سورة الحج : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ، ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾(٢) .

فالمحن التى تعرض لأصحاب الدعوات هى التى تميز هذه الأصناف وتفرزهم من بين المؤمنين ، وتنفى الخبث من صفوفهم كما ينفى الكير خبث الحديد .

٢ ـ تربية المؤمنين ، وصقل معادنهم ، وتمحيص ما فى قلوبهم ، فهم ينضجون بالمحن كما ينضج الطعام بالنار .

يقول الله تعالى تعقيباً على معركة أحد : ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ، وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٣) .

ويقول فى موضع آخر من نفس السورة : ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ، وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٤) .

٣ ـ زيادة رصيدهم ومقامهم عند الله ، فهو يرفع درجاتهم ، ويضاعف حسناتهم ، أو على الأقل ـ يكفر خطاياهم ، حتى يمشى أحدهم على الأرض وما عليه خطيئة ، غسلته المحن غسلاً ، وطهرته الشدائد تطهيراً .

وإذا كانت الخطايا لازمة للبشر ، لأنهم ليسوا ملائكة مطهرين ، ولم تضمن العصمة من الذنوب لأحد غير الأنبياء ، فإن من رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين

---

(١) العنكبوت : ١٠ ، ١١ (٢) الحج : ١١

(٣) آل عمران : ١٤٠ ، ١٤١ (٤) آل عمران : ١٥٤

أن يتعهدهم بالابتلاء بعد الابتلاء ، لتتحات عنهم الخطايا بالصبر والاحتساب ، كما يتحات ورق الشجر فى الشتاء إذا يبس .

وفى الحديث الصحيح : « ما يصيب المسلم من هَـــم ٍولا غَم ٍولا نَصَبٍ ، ولا وَصَبٍ ، ولا حُــــزْنٍ ولا أذى ، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه ». (رواه البخارى)

❊ ❊ ❊

● ضرورة الصبر لرسل الله :

وإذا كـــان الصبر ضرورة لازمة لأهل الإيمان ، فهو أكثـر لـــزوماً لرسل الله عليهم السلام ، لأنهم مبعوثو العناية الإلهية لتغيير المجتمعات ، وتحويل وجهتها ، وإنشائها خلقاً آخر ، فى عقائدها وشعائرها وأخلاقها وأعمالهـا. وهكذا يقف أنبياء الله وجهاً لوجه أمام المخالفين والمعاندين ، وهــــم أكثـر النـــاس ، ممن أضلهم الهوى أو أعماهم التقليد، أو استعبدتهم الدنيا، أو أفسد قلوبهم الكبر والحسد .

وفى هـــذا جاء الحـــديث النبوى : « أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل » .

وكلما كان قـــوم الرسول أكثر إغراقاً فى الضلال كانت حاجته إلى الصبر أكثر ، مثل أُولى العزم من الرسل : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ، عليهم الصلاة والسلام .

ولما كانت دعوة محمد ﷺ دعوة عامة شاملة ، فهى دعوة لكل الأجناس والألوان والأوطان والطبقات ، وهى دعوة لتغيير العقائد والمفاهيم والشعائر ، والتقاليد ، والنظم ، والأوضاع - من أجل ذلك كان خصومها أكثر ، والعداء لها أكبر، وكانت حاجة مؤسسها إلى الصبر أعظم .

ولا غَرو أن نجد آيات القرآن العزيز تأمـر الرســول ﷺ بالصبر فى مواضع عــدة ، كلها - عند التحقيق - فى القرآن المكى .

وسر ذلك أن العهد المكى هو عهد الاضطهاد والفتنة ، وقلة الصبر ، وضعف الأتباع . فقد كانوا - كما وصفهم القرآن - قليلاً مستضعفين فى الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس .

وقد ظل النبى ﷺ نحو عشر سنوات يدعو فلا يستجيب لدعوته إلا الواحد بعد الواحد ، ثم كان العام العاشر ففقد فيه سنده فى الداخل : خديجة زوجه ، وسنده فى الخارج : أبا طالب عمه ، فسماه عام الحزن !

وفى خلال هذه الأعوام حاربته قريش بكل صنوف الأذى ، فى نفسه وفى أصحابه ، بالقول والفعل ، باللسان واليد . . بسلاح الاستهزاء والافتراء . وسلاح الضغط العائلى ، وسلاح المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية ، وسلاح التعذيب البدنى .

ولم يقف ﷺ عند حدود قريش ، فكان يعرض دعوته على قبائل العرب كلما جاء موسم الحج ، فلم يظفر بمن يلبى نداءه . ورحل إلى ثقيف بالطائف ، فلم يجد عندهم أذناً تسمع ، ولا قلباً يعى ، ولا يداً تنبسط إلا بالأذى .

ويرجع من هذه الرحلة بجراح دامية فى قدميه مما قذفه به سفهاء الطائف من حجارة ، وبجراح أعمق غوراً فى قلبه ، مما رده به زعماؤها من أقوال هى أشد من الحجارة إيذاء ، فهذه تؤلم الأبدان ، وتلك تؤلم القلوب . ولا نجد تعبيراً عن الأسى والأسف لما حدث أبلغ من تلك المناجاة الرقيقة المؤثرة المعبرة التى ناجى بها الرسول ربه فى عودته : « اللّهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس . يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى ... إلى أن يقول : «إن لم يكن بك غضب علىَّ فلا أُبالى ، ولكن عافيتك أوسع لى » .

* * *

• أوامر اللّه لرسوله بالصبر :

من أجل هذا كثرت أوامر اللّه لرسوله بالصبر . حتى تكرَّر فى عشرين موضعاً من كتاب اللّه ، بعضها بصيغة « اصبر » وهى ثمانى عشرة ، واثنتان بصيغة « اصطبر » [1].

---

(١) وهما قوله تعالى : ﴿ رَبُّ السَّمَوات وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهمَا فَاعْبُدْهُ واصْطَبِرْ لِعَبادَتِه ، هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ (مريم : ٦٥) ، وقوله : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ (طه : ١٣٢)

ولو أخذنا هذه الأوامر - بصيغة (اصبر) - حسب ترتيب المصحف لوجدنا هكذا:

١ - في الآية (١٠٩) من سورة يونس وهي ختام السورة : ﴿ واتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ واصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ ، وَهُوَ خَيْرُ الحاكمينَ ﴾ والآية التى قبلها تمهد لهذا الأمر بأمر آخر للنبى حيث تقول :﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوكِيلٍ ﴾ (١) .

٢ - وفى سورة هود بعد أن قَصَّ الله على نبيه قصة شيخ المرسلين وأبى البشر الثانى نوح ، وما حدث له مع قومه ، ومع ابنه قال : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ، فَاصْبِرْ ، إِنَّ العَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) .

٣ - وفى سورة هود أيضاً بعد أن قَصَّ الله على رسوله قصص مجموعة من رسل الله مع أقوامهم ، وما عانوه فى سبيل دعوة التوحيد والإصلاح ، وبعد أن أمره الله ومن معه بالاستقامة على أمر الله ، وحذَّرهم من الطغيان والركون إلى الظالمين ، وأعقب ذلك بالأمر بإقامة الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل ، جاء الأمر بالصبر ، لأنه العدة اللازمة لتنفيذ ما سبق من أوامر ، واجتناب ما ذكر من نواه : ﴿ واصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣) .

٤ - وفى سورة النحل ، وفى خواتيمها يبين الله لرسوله منهج الدعوة إلى سبيل ربه من الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن ، ثم يشير إلى دستور المعاملة مع المتصدين للدعوة والدعاة بالعدوان ، وهو معاقبة المعتدى بمثل اعتدائه دون التفكير فى أكثر من المثل ، وإيثار الصبر والصفح عند المقدرة ، فهو أليق بأصحاب الدعوة . ثم يُعَقِّب على ذلك آمراً بالصبر، الذى لا يُعين عليه ، ولا يُوفَّق إليه إلا الله ، الذى لا يتخلى عن المتقين المحسنين من عباده ، ومنهم الصابرون ، وهذه هى الآيات الثلاث الأخيرة : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ

---

(١) يونس : ١٠٨ (٢) هود : ٤٩

(٣) هود : ١١٥

فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ ، وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ (١) .

وفى قوله : ﴿ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾ تشريف للصبر : حيث أضافه تعالى إلى نفسه بعد الأمر به ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ (٢) وإن كان كل شئ فى الوجود لا يقوم إلا به ، وكل عمل صالح لا يكون إلا له. ولكن التخصيص دليل التكريم والتشريف .

٥ ـ وفى سورة الكهف : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (٣) .

٦ ـ وفى سورة طه : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ، وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾ (٤) .

٧ ـ وفى سورة الروم وهى آية الختام : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ ﴾ (٥) .

٨ ـ وفى سورة (ص) : ﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ ، إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (٦) .

٩ـ وفى سورة غافر جاء الأمر بالصبر مرتين : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴾ (٧) .

١٠ ـ ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ (٨) .

١١ـ وفى الأحقاف فى آية الختام : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾ (٩) .

---

(١) النحل : ١٢٦ ـ ١٢٨ (٢) المدثـر : ٧ (٣) الكهف : ١٨

(٤) طـه : ١٣٠ (٥) الروم : ٦٠ (٦) سورة ص : ١٧

(٧) غافر : ٥٥ (٨) غافر : ٧٧ (٩) الأحقاف : ٣٥

ولم يأمر الله رسوله ﷺ بالاقتداء بأسلافه من الرسل فى خُلُقٍ معين إلا فى الصبر ، تنبيهاً على عِظم منزلته ، وشدة الحاجة إليه ، ومشقته على النفس .

١٢- وفى سورة (ق) : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾(١) .

١٣- وفى سورة الطور ، وهى الآية قبل الأخيرة : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ (٢) .

وفى هذه الآية الوجيزة تربية وتقوية وتسلية وترضية للنبى ﷺ من عدة وجوه . فهو مأمور بالصبر لحكم ربه ، وهو سبحانه لا يحكم إلا بالحق والعدل ، وهو أحكم الحاكمين ، وخير الحاكمين .

ولطيفة أُخرى فى هذه الآية وهى قوله :﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ ومن كان بعين الله وبمرأى منه وملحظ فلن يُغلب ولن يضيع .

ونظير هذا قوله تعالى لموسى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِى ﴾ (٣) ولكن الملاحظ أن العبارة هنا جاءت بالجمع ، جمع العين (أعين) جمع ضمير المتكلم ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ وفى ذلك زيادة فى التثبيت والتأسيس .

وأمر ثالث فى هذه الآية وهو قوله :﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ وقد أعقب الأمر بالتسبيح الأمر بالصبر فى جملة آيات . ولعل السر فى ذلك أن التسبيح يعطى الإنسان شحنة روحية تحلو بها مرارة الصبر ، وينشرح بها ضيق الصدر ، وفى مثله جاء قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾(٤) .

ثم إن التسبيح بحمد الله هنا يحمل معنيين جليلين ينبغى أن يرعاهما من نزل به البلاء :

---

(١) سورة ق : ٣٩
(٢) الطور : ٤٨
(٣) طــه : ٣٩
(٤) الحجر : ٩٧ - ٩٩

الأول : تنزيه الله تعالى ـ وهو معنى التسبيح ـ أن يفعل شيئاً عبثاً ، أو يصدر عنه ما لا يليق بكماله وجوده وحكمته . كيف ؟ وهو البرُّ الرحيم العليم الحكيم ؟ !

فهو إذا ابتلى بعض عباده المصطفين ، فإنما ذلك لحكمة يعلمها . وإن لم يكونوا يعلمونها .

الثانى : أن له تعالى فى كل محنة منحة ، وفى كل بلية نعمة ، بل نِعماً ، ينبغى أن تُذكر فتُشكر وتحُمد ، وهذا سر اقتران التسبيح بالحمد هنا .

وفى ذكر كلمة «رب» مضافاً إلى (كاف الخطاب) ، بعد لفظ الجلالة من الإيناس والإيذان بكمال التربية والرعاية والقرب، ما يقوِّى العزم ، ويُذهب الهم ، ويشرح الصدر.

١٤ـ وفى سورة القلم : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾(١) ـ يعنى يونس عليه السلام حين ترك قومه مغاضباً ـ وقبل هذه الآية بآيات جاء قوله تعالى :﴿ فَذَرْنِى وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيث ، سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِى لَهُمْ ، إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ (٢).

فالنص يقول : ذرنى وإياه . يريد : كِلنى إليه . فإنى أكفيك ، أى حسبك انتقاماً منه أن تكل أمره إلى ، وتُخلى بينى وبينه . فإنى عالم بما يجب أن يُفعل به ، قادر على ذلك . ثم قال :﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ ﴾ ـ أى سنستنزلهم إلى ما نريد درجة درجة ، وهم لا يعلمون ، لأنهم فى غمرة ساهون .

١٥ـ وفى سورة المعارج :﴿ فَاصْبِرْصَبْراً جَمِيلاً * إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ (٣) ، ووصف الصبر بالجمال من التعبيرات القرآنية فى وصف بعض المعانى بالجمال الذى كان المعتاد أنه وصف للأشياء الحسنة . فقد ذكر القرآن الصبر الجميل هنا ، وفى سورة يوسف كما تحدث عن « الصفح الجميل »(٤) ، و « الهجر الجميل » (٥) وقد نقل ابن القيم عن شيخه ـ

---

(١) القلم : ٤٨ (٢) القلم : ٤٤ ، ٤٥ (٣) المعارج : ٥ ـ ٧

(٤) فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ ، فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ (الحجر : ٨٥) .

(٥) فى قوله تعالى : ﴿ واهْجُرْهُمْ هَجْراً جَميلاً ﴾ (المزمل : ١٠) .

شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قوله : الصبر الجميل هو الذى لا شكوى فيه ولا معه ، والصفح الجميل هو الذى لا عتاب معه ، والهجر الجميل هو الذى لا أذى معه .

١٦ ـ وفى سورة المزمل : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً ﴾(١).

وهنا نجد هذه العبارة :﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ تكررت أربع مرات فى القرآن لتدل بوضوح على أن أقوالهم الجارحة فى شأن النبى ﷺ كانت عميقة الأثــر فى نفســه ، وكانت تؤذيه أشد الإيذاء ، مثل قولهم : مجنون ، وساحر ، ومفتر ، وقولهم عن القرآن : أساطير الأولين . وقولهم فى الله ما لا يليق بجلالــه . ولهــذا تكرر الأمر بالصبر على ما يقولون ، كما جاء فى أكثر من آية : ﴿ فَلاَ يَحْزُنْكَ قَولُهُمْ . . ﴾ (٢) .

١٧ ـ وفى مطلع سورة المدثر ـ وهى من أوائل ما نزل من القرآن ـ يأمر الله رسوله الكريم أن يدع لحافه ودثاره ، وينهض لدعوته ، مُبَلِّغاً مُنذراً ، مُنفِّذاً ما أمــر الله به ، مُجتنباً ما نهى الله عنه . وهنا يأمر القرآن بالصبر لـربه ، وبهــذا يكون الصبر عدَّة له فى جهاده ، وسلاحاً ماضياً فى معركته مع الجاهلية: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ* وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ (٣). وهـذه الجملة : ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ تحتمل معنيين :

أحدهما : اصبر لربك ، أى لحكمه وقضائه وبلائه . فهى كآية الطور : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ (٤) ، وكذلك فى سورة الإنسان وفى ســورة القلم : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ (٥).

والثانى : اجعل صبرك لله تعالى ، لا لأحد غيره ، ولا لشئ سواه ، أى أخلص النية فى صبرك ، واجعله لربك وحده .

وهذا هو الراجح عندى ، وهو الذى يدل عليه تقديم الجار والمجرور . فهو يفيد الاختصاص والحصر. ذلك أن الصبر المحمود هو الذى يكون لله تعــالى

---

(١) المزمل : ١٠ (٢) يس : ٧٦ (٣) المدثر : ١ ـ ٧
(٤) الطور : ٤٨ (٥) الانسان : ٢٤ ، القلم : ٤٨

لا للدنيا ولا للمحمدة ولا للسمعة. ولهذا أثنى الله على قوم فقال: ﴿ والَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ .. ﴾ (١) .

ومن الطريف هنا موازنة بعض الصوفية بين الصبر للّه والصبر بالله . فيقول الشيخ الهروى صاحب « منازل السائرين » : « أضعف الصبر الصبر لله ، وهو صبر العامة . وفوقه الصبر بالله ، وهو صبر المريدين » .

ويرد عليه شارحه المحقق ابن القيم فيقول : « الصواب أن الصبر لله فوق الصبر بالله ، وأعلى درجة وأجل ، فإن الصبر لله متعلق بإلهيته ، والصبر بالله متعلق بربوبيته. وما يتعلق بإلهيته أكمل وأعلى مما تعلق بربوبيته .

ولأن الصبر له عبادة ، والصبر به استعانة ، والعبادة غاية ، والاستعانة وسيلة ، والغاية مرادة لنفسها ، والوسيلة مرادة لغيرها.

ولأن الصبر به مشترك بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، فكل من شهد الحقيقة الكونية صبر به . وأما الصبر له فمنزلة الرسل والأنبياء والصديقين وأصحاب مشهد : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (٢) .

ولأن الصبر له : صبر فيما هو حق له ، محبوب له ، مرضى له . والصبر به قد يكون فى ذلك ، وقد يكون فيما هو مسخوط له ، وقد يكون فى مكروه أو مباح فأين هذا من هذا » ؟ (٣) .

١٨ ـ وأخيرا جاء الأمر بالصبر فى سورة الإنسان فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّك وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾ (٤) .

وهنا تجد الآية الأولى تمهيداً وتقديماً للآية الثانية التى أُمر فيها الرسول بالصبر. إذ المقصود بالأولى ـ كما ذكر الفخر الرازى فى تفسيره ـ تثبيت الرسول وشرح صدره ، فيما نسبوه إليه من كهانة وسحر ، فذكر الله تعالى أن ذلك وحى من الله ، فلا جَرَم أن بالغ وكرَّر الضمير ﴿ إِنَّا نَحْنُ ﴾ بعد إيقاعه

(١) الرعد : ٢٢ .
(٢) الفاتحة : ٥ .
(٣) مدارج السالكين جـ ٢ص ١٦٨ ، ١٦٩ .
(٤) الإنسان : ٢٣ .

اسماً لـ « إنَّ » تأكيــداً على تأكيد أبلغ ، كأنه تعـالى يقول : إن كان هؤلاء الكفار يقولون : إن ذلك كهانة ، فأنا الله الملك الحق أقول على سبيل التأكيد والمبالغة : إن ذلك وحي حق ، وتنزيل صدق من عندى .

وهذا فيه فـائدتان :

إحداهما : إزالة الغم والوحشة عن خاطره ﷺ بسبب طعن أولئك الكفار ، فإن بعض الجهّال إن طعنوا فيه فإن جبار السموات عظّمه وصدّقه.

والثانية : تقوية قلبه على تحمل التكليف المستقبل .

وبعد هذه المقدمة أمره تعالى بالصبر فقال : ﴿ فاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ وقد سبق هذا التعبير فى سورة الطور وفى سورة القلم . ويذكر الرازى هنا : أن معنى : ﴿ فاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ إما أن يكون فى تأخير الإذن فى القتال (الذى كان يتعجله بعض أصحابه) أو يكون المعنى عاماً فى جميع التكاليف . أى فاصبر فى كل ما حكم به ربك ، سواء أكان ذلك تكليفاً خاصاً بك من العبادات والطاعات ، أو متعلقاً بالغير ، وهو التبليغ وأداء الرسالة ، وتحمل المشاق الناشئة من ذلك » (١) .

والتعميم عندنا هو الأرجح ، لأنه هو الأليق بالسياق ، وإن كان الذى يُفهم من كلام الرازى أن المراد بالحكم فى الآية هو الحكم الشرعى التكليفى ، وهو جزء من المعنى المراد فيما أرى ، ولكنه ليس كل المراد ، إذ لم يدخل فيه الحكم الكونى القدرى . أى ما قضاه الله وقدّره وحكم به ، وجرى به قلم المقادير من محن وشدائد ومشاق ، بل لعل هذا هو المتبادر هنا أكثر من المعنى الثانى ، لارتباط الصبر فى الذهن والعادة ، بما قضاه الله من بلايا . فالحكم هنا هو القضاء الإلهى ، وليس الأمر والنهى والتكليف. وهو الذى جاء فى قوله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ ، وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ ﴾ (٢) ، وقول شعيب لقومه : ﴿ فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾(٣) .

* * *

---

(١) التفسير الكبير للرازى جـ ٣٠ ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ (٢) يونس : ١٠٩

(٣) الأعراف : ٨٧

● **حكم الصبر :**

ذكر الإمام ابن القيم فى « المدارج » أن الصبر واجب بإجماع الأمة .

وهـذا صحيح فى الجملة لا فى التفصيل . ويكفى فى الدلالة على ذلك :

١ ـ أن الله أمر به فى آيات كثيرة ، وأصل الأمر إفادة الوجوب . وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ . . . ﴾(١) ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا ﴾(٢) ، ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ . . ﴾ (٣) .

٢ ـ أنـه نهى عن ضده فى مثـل قـولـه تعـالى : ﴿ فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ﴾ (٤) ، فإن توليـة الأدبـار ترك للصبر والمصابرة . وقولـه تعالى : ﴿ وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ (٥) فإن إبطالها تـرك للصبر على إتمامهـا . وقـوله : ﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا ﴾(٦) فإن الوهـن من عـدم الصبـر . وقـولـه : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ (٧) فإن الاستعجال من عدم الصبر .

٣ ـ أن القرآن الكريم رتَّب عليه خيرى الدنيا والآخرة. فلا يفوز الإنسان بمحبوب ولا ينجو من مكـروه إلا بالصبر. وما كان كذلك ، كان تحصيله واجباً .

ومع هذا نقول : إن حكـم الصبر إنما يكون بحسب المصبور عنه أو المصبور عليه . فالصبر عن المحرمات واجب ، وتتأكد درجة وجوبه بمقدار عظم المحَّرم .

أما الصبر عن المكروه ، أو عما هو خلاف الأفضل والأمثل ، فلا يصل إلى درجة الواجب : وإنما هو مستحب ، أو خير من مقابله .

مثال ذلك أن مقابلة السيئة بمثلها مشروع فى الإسلام ، وأفضل منها العفـو والصفح . ومن هنا لا يكون الصبر عن مقابلة السيئة بمثلها واجباً ، بل أمراً مندوباً إليه مرغوباً فيه . وفى ذلك جاء قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ، وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾(٨) ومثله : ﴿ وَلَمَن

---

(١) البقرة : ١٥٣
(٢) آل عمران : ٢٠٠
(٣) النحـل : ١٢٧
(٤) الانفال : ١٥
(٥) محمد : ٣٣
(٦) آل عمران : ١٣٩
(٧) الأحقاف : ٣٥
(٨) النحل : ١٢٦

انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمه فَأُولَئكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبيلٍ * إنَّمَا السَّبيلُ عَلَى الَّذينَ يَظْلمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فى الأَرْضِ بغَيْرِ الحَقِّ ، أُولَئكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَليمٌ * وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَر إنَّ ذَلكَ لَمنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾(١) .

فالصبر هنا عن المعاقبة بالمثل ، وعن الانتصار بعد الظلم إنما هوفضيلة لا فريضة ، يُحمد ويُثاب مَنْ فعلها ، ولا يُذَم ولا يُعاقَب مَنْ تركها . فليس فى القرآن ما فى الإنجيل من النهى عن مقاومة الشر بالشر والسيئة بمثلها ، وأمر من ضُرب على خده الأيمن أن يُدير للضارب خده الأيسر ، فليس هذا بمستطاع لكل الناس ، وفى كل الأحوال ، وإنما فيه الترغيب فى الصبر والصفح ودفع السيئة بالتى هى أحسن ، وهذه هى مرتبة الفضل والإحسان ، مع إجازة مقابلة السيئة بالسيئة ، والعدوان بالعدوان ، وهذه هى مرتبة العدل، والبادى أظلم ، ولكن الشرط أن يُقابَل الاعتداء بمثله ، دون زيادة أو حيف ، فى الكم أو الكيف . أما أن تكيل للمعتدى الصاع صاعين . وترد له اللطمة لطمتين ، فهذا هو العدوان الممنوع . ولهذا أكد القرآن « المثلية » فى هذا المقام دائماً بمثل قوله : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مثْلُهَا ﴾(٢) ، ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْه بمثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللّهَ ﴾ (٣) ،﴿ وَإنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقبْتُمْ به ﴾ (٤) .

ونحو ذلك ما جاء فى الصبر عن زواج الإماء المؤمنات ، وإن رخَّص القرآن فيه لمن لم يستطع الزواج من الحرائر المؤمنات فقد قال تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ منْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكحَ المُحْصَنَات المُؤْمنَات فَمنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ منْ فَتَيَاتكُمُ المُؤْمنَات ، وَاللّهُ أَعْلَمُ بإيمَانكُمْ ، بَعْضُكُمْ منْ بَعْضٍ ، فَانْكحُوهُنَّ بإذْنِ أَهْلهنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بالمَعْرُوف مُحْصَنَات غَيْرَ مُسَافحَات وَلاَ مُتَّخذَات أَخْدَانٍ ﴾ .... إلى أن قال :﴿ ذَلكَ لمَنْ خَشيَ العَنَتَ منْكُمْ ، وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ ، وَاللّهُ غَفُورٌ رَحيمٌ ﴾ (٥) .

(١) الشورى : ٤١ ـ ٤٣
(٢) الشورى : ٤٠ .
(٣) البقرة : ١٩٤
(٤) النحل : ١٢٦
(٥) النساء : ٢٥

ومثل ذلك يقال فيما يُصبر عليه ، فالصبر على الواجبات واجب ، وعلى المستحبات مستحب .

فالصبر علـــى أداء الصلوات الخمس فى أوقاتها واجب مؤكد ، وفريضة لازمة . أما الصبر على قيام الليل فهو مستحب . . وهكذا .

وبعد أن كتبت هذا، قرأت فى « قوت القلوب » هذه العبارات :« إن الصبر فرض وفضل ، يُعرف ذلك بمعرفة الأحكام . فما كان أمراً أو إيجاباً فالصبر عليه أو عنه فرض ، وما كان حقاً وندباً ، فالصبر عليه أو عنه فضل» ا هـ (١).

وفصَّل ذلك الإمام الغــــزالى فى « الإحياء » فقال : « اعلم أن الصبر ينقسم ـ باعتبار حكمه ـ إلى فرض ونفل ، ومكروه ومحرَّم .. فالصبر عن المحظورات فرض ، وعلى المكاره نفل ، والصبر على الأذى المحظور محظور ، كمن تُقطع يده ، أو يد ولده ، وهو يصبر عليه ساكتاً. وكمـن يقصد جريمة بشهوة محظورة ، فتهيج غيرته ، فيصبر عن إظهار الغيرة ، ويسكت على ما يجرى على أهله ، فهذا الصبر محرَّم .

والصبر المكروه هوالصبر على أذى يناله بجهة مكروهة فى الشرع. فليكن الشرع محك الصبر . فكون الصبر نصف الإيمان لا ينبغى أن يُخيِّل إليك أن جميعه محمود ، بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة » (٢) .

فالصبر ـ إذن ـ إنما يُحمد إذا كان على بلاء لا يقدر الإنسان على إزالته ، أو التخلص منه ، فأما ما كان مقدوراً على دفعه أو رفعه فليس الصبر عليه مطلوباً فى الدين .

يقول الغزالى : « كل بلاء يقدر الإنسان على دفعه فلا يؤمر بالصبر عليه . فلو ترك الإنسان الماء مع طول العطش حتى عظم تألمه ، فلا يؤمر بالصبر عليه ، بل يؤمر بإزالة الألم . وإنما الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته » (٣) .

وفى مثل هـــذا جـــاء وعيـــد القرآن الشديد فى شأن الذين يقيمون فى دار الشرك والحرب للاسلام ظالمى أنفسهم ، عاجزين عن إقامة فرائض دينهـم ،

---

(١) قوت القلوب جـ٢ ص ١٩٩

(٢) إحياء علوم الدين جـ٤ ص ٦٩

(٣) إحياء علوم الدين جـ ٤ ص ١٢٧

وهم قـــادرون على الهجرة إلى دار الإسلام . قـــال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ ، قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ، فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَسَاءَتْ مَصِيراً * إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً * فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ عَفُوّاً غَفُوراً ﴾ (١) .

* * *

● الباعث على الصبر :

لم يكتف القــرآن بالأمر بالصبر ، والثناء على أهله ، ونوط كل خير عاجل أو آجل به .

بل عنى ـ إلى جوار ذلك ـ بالباعث على الصبر ، والدافع إليه . فالصبر المحمـــود فى القرآن هو ما كان لله تعالى ، لا لكسب محمدة أو بطولة عند الناس .

ولـهذا قـــال سبحانــــه لرسولـــه : ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ (٢) أى اجعـل صبرك لربك لا لأحد غيــره . فالصبر هنـــا عبادة وقربة إلى الله جل جلاله .

وأثنى القرآن على أولى الألباب الـذين لهم عُقبى الـدار ، فكان من أوصافهم : ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً ﴾ (٣) .. فلم يمدحهم لمجـــرد أنهـم صبـــروا ، بل لأنهم صبروا ابتغاء وجه ربهم .

وهذا النص القرآنى يشير إلى حقيقــة هامـــة فى الأخلاق القرآنيـــة ، وهى « صبغتها الربانية » فهى ليست أخلاقاً وضعية ولا مادية ، لا من حيث مصدرها ولا من حيث غايتها .

وإنما هى أخلاق ربانية ، سواء نظرنا إليها من جهـــة مصدر الإلـــزام بها أم من جهة الغاية الباعثة والحافزة .

---

(١) النساء : ٩٧ ـ ٩٩ (٢) المدثر : ٧ (٣) الرعد : ٢٢

فمصدرها هو الوحى الإلهى ، هو أمر الله تعالى ونهيه .
وغايتها ابتغاء وجه الله تعالى .

* * *

• المؤمن مأمور بالمصابرة مع الصبر :

والقرآن لم يكتف من المؤمنين بمجرد الصبر : بل طلب منهم درجة أخرى بعد الصبر ، وهى المصابرة .

فقد قال تعالى فى ختام سورة آل عمران : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

وصيغة المصابرة تفيد مفاعلة من جانبين ، والمعنى هنا : مغالبة الأعداء فى الصبر. وذلك أننا إذا كنا نصبر على حقنا ، فإن المشركين يصبرون على باطلهم . فلا بد أن نغلبهم بصبرنا ، وأن يكون صبرنا آكد وأقوى .

ولهذا حكى القرآن عن المشركين استمساكهم بالصبر على ضلالهم وشركهم وتواصيهم بذلك .

ففى سورة الفرقان يتحدثون عن النبى ﷺ ساخرين : ﴿ أَهَـٰذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً * إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلاَ أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ (٢) ، وفى سورة (ص) يقول الله تعالى حاكياً عنهم : ﴿ وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ ، إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ (٣).

فإذا كان هذا شأن أهل الشرك فى التنادى بالصبر على آلهتهم ، فصابروهم أيها المؤمنون وغالبوهم . بالصبر على توحيدكم وعقيدتكم ، والاستمرار فى تأييد دينكم ، والتضحية فى سبيله .

ومن ثَمَّ وصلت الآية الأمر بالصبر والمصابرة بمعنى ثالث وهو : المرابطة وهى صيغة مفاعلة مشتقة من ربط الخيول فى الجهاد .

وقد قيل فى قوله تعالى : ﴿ اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ﴾ أنه انتقال من الأدنى إلى الأعلى ، فالصبر دون المصابرة ، والمصابرة دون المرابطة .
والمرابطة ـ كما قال ابن القيم (٤) :مفاعلة من الربط ، وهو الشد ، وسمى

---

(١) آل عمران : ٢٠٠
(٢) الفرقان : ٤١ ، ٤٢
(٣) سورة ص : ٦
(٤) مدارج السالكين جـ ٢ ص ١٥٩

« المرابط » لأن المرابطين يربطون خيولهم ينتظرون الفزع . ثم قيل لكل منتظر قد ربط نفسه لطاعة الله ينتظرها : مرابط. ومنه قول النبى ﷺ : «ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة . فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط » (١) . .

فالصبر مع نفسك. و« المصابرة » بينك وبين عدوك . و« المرابطة » الثبات وإعداد العُدَّة . وكما أن الرباط لزوم الثغر لئلا يهجم منه العدو، فكذلك الرباط أيضاً لزوم ثغر القلب ، لئلا يهجم منه الشيطان ، فيملكه أو يخربه ، أو يشعثه (٢) .

* * *

● الصبر المحمود ما كان فى أوانه :

والمهم فى الصبر أن يكون فى أوانه ، فإن الشئ إذا كان فى أوانه أثمر وآتى أكله ، أما إذا كان بعد فوات الأوان ، فلا قيمة له . ولا فائدة منه ، فكذلك الرباط أيضاً لزوم ثغر القلب ، لئلا يهجم منه ، وهذا ما حكاه القرآن عن صبر أهل النار .

قال تعالى : ﴿ وَبرَزُوا للَّه جَميعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ شَئٍ ، قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ، سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴾ (٣) .

فالصبر هنا لا ثمرة له ولا وزن ، لأنه صبر فى غير محله ، وبعد انتهاء أمده وزمانه .

ومن هنا أيضاً ذكر المكذِّبين الذين يُدعُّون إلى نار جهنم دَعًّا ، قائلا : ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِى كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ * اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لاَ تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ، إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٤) .

* * *

---

(١) رواه مسلم .

(٢) مدارج السالكين جـ ٢ ص ١٥٩

(٣) ابراهيم : ٢١

(٤) الطور : ١٤ ـ ١٦

الفصل الثانى

مجالات الصبر فى القرآن

وللصبر فى القرآن مجالات كثيرة يجمعها أحد أمرين : إما حبس النفس عما تحب ، أو حبسها على ما تكره . ولهذا الإجمال تفصيل فى كتاب الله تعالى .

١ ـ الصبر على بلاء الدنيا :

فهناك الصبر على بـــلاء الدنيا ونكبات الأيام . وهذا ما لا يخلو منه برٌّ ولا فاجر ، ولا مؤمن ولا كافر ، ولا سيد ولا مسود ، لأنه راجع إلى طبيعة الحياة ، وطبيعة الإنسان ، وما رأينا أحداً يسلم من آلام النفس ، وأسقام البدن ، وفقدان الأحبة ، وخسران المال ، وإيذاء الناس ، ومتاعب العيش ، ومفاجآت الدهر.

وهذا ما أقسم الله على وقوعه حين قـــال : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ (١) .

و هـــذا النوع من الصبر هو الذى لا يخطر ببال الكثيرين غيره ، ويمثله فى القرآن صبر أيوب على مرضـــه وفقد أهله ، وصبر يعقـــوب على فـــراق ولديه (يوسف وأخيه) وكيد أبنائه وكذبهم عليه .

وسنعود لتفصيل ذلك عند الحديث عن النماذج أو الشخصيات الصابرة فى القرآن .

* * *

٢ ـ الصبر عن مشتهيات النفس :

وهذا مجال آخر من مجالات الصبر ، هو الصبر عما تشتهيه النفس ، ويميل

---

(١) البقرة : ١٥٥ ـ ١٥٧ .

إليـــه الطبع ، من متاع الدنيا وزينتها وشهواتها ، التى يسـوق إليها الهـــوى ، ويزينها الشيطان .

(أ) وهنا نجد فى هذا المجال الصبر عن الاستجابة لمتاع الحياة الدنيا وزينتها إذا أقبلت على الإنسان . وتبدت له كالحسناء اللعوب ، فهذا لون جديد من الابتلاء .

إنه الابتلاء بالسَّراء لا بالضَرَّاء ، وبالغنى لا بالفقر . وقــد قــال تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ (١) ، وقال : ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ ﴾ (٢) فجعل الإكرام والتنعيم ابتلاء ، كالتضييق فى الرزق سواء .

والمؤمن محتاج إلى الصبر عن ملاذ الدنيا ، فلا يطلق لنفسه العنان للجرى وراء شهواتها من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوَّمة والأنعام والحرث ، فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهماك فيها ، أخرجه ذلك إلـى البطــر والطغيان . .

ولهذا قال بعض العارفين : البلاء يصبر عليه المؤمن ، والعوافى (جمـــع عافية) لا يصبر عليها إلا صدِّيق .

وقال أحدهم : الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء .

ولما فُتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضى الله عنهم قال بعضهم : ابتلينا بفتنة الضَرَّاء فصبرنا ، وابتُلينا بفتنة السَرَّاء فلم نصبر .

قال الإمام الغزالى : « وإنما كان الصبر على السَرَّاء أشد ، لأنه مقرون بالقدرة ، ومن العصمة ألا تقدر . . والجائع عند غيبة الطعام ، أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة الطيبة اللذيذة وقــدر عليها ، فلهذا عظمت فتنة السراء . » (٣) .

ولهذا حذَّر الله عبـــاده من فتنــة الأموال والأولاد والأزواج وشهوات الدنيا

---

(١) الأنبياء : ٣٥ . (٢) الفجر : ١٥ ، ١٦ .

(٣) إحياء علوم الدين جـ ١ ص ٧٠ .

جمعــاء ، فى مثل قولــه تعالـــى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾(١) ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، وَمَــنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾(٢) ، ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِيـنَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ، ذَلِكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ ، لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (٣) ، ووصف الله هؤلاء الذين اتقوا من عباده فقال : ﴿ الصَّـابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴾ (٤) .

قال الغزالى : « فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية . ومعنى الصبر عليها : ألا يركن إليها ، ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده ، وعسى أن يسترجع على القرب ، وألا يرسل نفسه فى الفرح بها ، ولا ينهمك فى التنعم واللّذة واللّهو واللعب ، وأن يرعى حقوق الله فى ماله بالإنفاق ، وفى بدنه ببذل المعونه ، وفى لسانه بالصدق ، وكذلك فى سائر ما أنعم الله به عليه » (٥) .

(ب) وثمت مجال آخر للصبر عن الدنيا وزينتها . إنه الصبر عن التطلع إلى دنيا الآخرين ، والاغترار بما ينعمون به من مال وبنين. وبخاصة الطغاة المغرورون منهــم . فإن ما بأيديهم إنما ظاهــره نعمة وباطنه نقمـــــة : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِن مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُـمْ فِى الْخَيْرَاتِ ، بَل لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ (٦) ، وفى هذا خاطب الله رسوله بقوله: ﴿ وَلاَ تَمُـدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ (٧) .

فالمؤمن حقاً هو الذى يعتز بما آتاه الله من نعمة الهداية إلى الإيمان ، والتوفيق إلى الطاعة ، ويعلم أن المال ظل زائل ، وعارية مستردة ، ولايُبالى بمظاهر الأُبّهة والزينة التى يتمتع بها أصحاب الثروة والسلطان . وهذا ما وصف

---

(١) التغابن : ١٥ (٢) المنافقون : ٩ (٣) آل عمران : ١٤ ، ١٥
(٤) آل عمران : ١٧ (٥) إحياء علوم الدين جـ ١ ص ٦٩ .
(٦) المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦ (٧) طـه : ١٣١

به القرآن أهل البصيرة من قوم موسى ، الذين خرج عليهم قارون فى زينته وفخامة موكبه ، فقال الذين يريدون الحياة الدنيا فى تمن وتحسر : ﴿ يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (١) .

أما موقف أهل العلم والإيمان وذوى البصيرة والصبر ، فهو ما ذكره القرآن : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ، وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ﴾ (٢) .

(جـ) ونجد كذلك الصبر عن الاستجابة لداعى الشهوة ، وبخاصة الشهوة الجنسية العاتية ، التى اعترف الإسلام بقوتها ، وضعف الإنسان أمامها ، إذ شرع له النكاح ، وأباح له أن يتزوج الإماء (الجوارى) المؤمنات ، إذا لم يستطع أن يتزوج الحرائر . وقال فى ختام هذا السياق : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ ، وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاً ﴾ (٣) .

ورغم إباحة زواج الإماء المؤمنات هنا نجد القرآن يحث على الصبر عنه لما وراءه من رق الولد . فيقول : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ ، وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٤) .

فالصبر هنا صبر عن الاستجابة لداعى الشهوة مع أنها مباحة ، فكيف إذا كانت محرّمة ؟

هنا يكون الصبر حتماً لازماً ، والاستعفاف فرضاً قاطعاً ، كما قال تعالى : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِه ﴾ (٥) .

وخير من يمثل هذا النوع من الصبر فى القرآن هو يوسف الصدِّيق عليه السلام الذى راودته امرأة العزيز عن نفسه ، وغلّقت الأبواب وقالت : هيت لك . قال : معاذ الله ! وسنعرض لموقفه فيما بعد بتفصيل .

(د) وهنا نجد كذلك الصبر عن الاستجابة لداعى الغضب ، ومقابلة السيئة

---

(١) القصص : ٧٩
(٢) القصص : ٨٠ .
(٣) النساء : ٢٨
(٤) النساء : ٢٥
(٥) النور : ٣٣

بمثلها ، أو بأكثر منها ، بأن يكيل للمعتدى الصاع صاعين ، ويرد له الضربة ضربتين ، والشتمة شتمتين . وهذا هو الذى جاء فيه قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾(١) ، وقوله : ﴿ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ (٢) .

ويمثل هذا النوع من الصبر فى القرآن خير ابنَىْ آدم الذى هدده أخوه بالقتل ، فكان رده الحاسم البين : ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ ، إِنِّى أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣) .

* * *

٣ ـ الصبر على طاعة الله :

وهذا مجال ثالث للصبر ، وهو الصبر على طاعة الله تعالى ، والقيام بواجب العبودية له سبحانه . وفيه جاء قوله جل شأنه خطاباً لرسوله : ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ، هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ ؟ (٤) ، وقوله أيضاً : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ، لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً ، نَحْنُ نَرْزُقُكَ ، وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ (٥) .

وقد استخدم القرآن هنا صيغة الافتعال من الصبر « اصطبر » مكان الصيغة المعتادة « اصبر » لأن الافتعال يدل على المبالغة فى الفعل ، فزيادة المبنى تدل فى العادة على زيادة المعنى . وما ذاك إلا لأن الطريق إلى طاعة الله مليئة بالمعوقات من داخل النفس ومن خارجها . وفيها يقول الشاعر الصالح :

إنى ابتليت بأربع يرميننى ... بالنبل عن قوس له توتير
إبليس والدنيا ونفسى والورى ... يا رب أنت على الخلاص قدير

---

(١) النحل : ١٢٦ .
(٢) الشورى : ٤١ ـ ٤٣ .
(٣) المائدة : ٢٨ .
(٤) مريم : ٦٥ .
(٥) طه : ١٣٢ .

وثمت معنى نفسى عميق الأغوار ، بجعل طاعة الله وعبادته صعبة على نفس الإنسان ، وقد نبّه على هذا المعنى الإمام الغزالى فى إحيائـــه فقـــال : « الصبر على الطاعة شديد ، لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية وتشتهى الربوبية ، ولذلك قـال بعض العارفين : مـا من نفس إلا وهى مضمرة ما أظهر فرعون من قوله : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ (١) ولكن فرعون وجد له مجالاً وقبولاً فأظهره إذ استخف قومه فأطاعوه . ومـا من أحد إلا وهو يدّعى ذلك مع عبده وخادمه وأتباعه وكل من هو تحت قهره وطاعته ، وإن كان ممتنعاً من إظهاره،فإن استشاطته وغيظه عند تقصيرهم فى خدمته واستبعاده ذلك،ليس يصدر إلا عن إضمار الكبر ومنازعة الربوبية فى رداء الكبرياء .

فإن العبودية شاقة على النفس مطلقاً ، ثم من العبادات ما يُكره بسبب الكسل كالصلاة ، ومنها ما يُكره بسبب البخل كالزكاة ، ومنها ما يُكره بسببهما جميعاً كالحج والجهاد . فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد .

ويحتاج المطيع إلى الصبر على طاعته فى ثلاث أحوال :

الأولى : قبل الطاعة ، وذلك فى تصحيح النية والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء ودواعى الآفات،وعقد العـزم على الإخـلاص والوفـاء . وذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية والإخلاص وآفات الرياء ومكايد النفس . وقد نبّه صلوات الله عليه إذ قال : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ (٢) ، ولهذا قدّم الله تعالى الصبر على العمل فقال تعالى: ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ (٣) .

الحالة الثانية : حالة العمل ، كى لا يغفل عن الله فى أثناء عمله ، ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه ، ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير فيلازم الصبر عن دواعى الفتـور إلى الفـراغ ، وهـذا أيضـاً من

---

(١) النازعات : ٢٤ (٢) البينـة : ٥

(٣) هـود : ١١

شدائدالصبر ، ولعله المراد بقوله تعالى : ﴿ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ (١) أى صبروا إلى تمام العمل .

الحالة الثالثة : بعد الفراغ من العمل ، إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء ، والصبر عن النظر إليه بعين العُجب وعن كل ما يُبطل عمله ويُحبط أثره ، كما قال تعالى : ﴿ وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ (٢) ، وكما قال تعالى : ﴿ لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى ﴾ (٣) فمن لا يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى فقد أبطل عمله .

والطاعات تنقسم إلى فرض ونفل ، وهو محتاج إلى الصبر عليهما جميعاً ، وقد جمعهما الله تعالى فى قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ﴾ (٤) فالعدل هو الفرض ، والإحسان هو النفل ، وإيتاء ذى القربى والمروءة وصلة الرحم ، وكل ذلك يحتاج إلى صبر (٥) .

وأبرز من يُمثّل هذا النوع من الصبر فى القرآن : الخليل إبراهيم ، وابنه الذبيح إسماعيل عليهما الصلاة والسلام ، وذلك حين جاء إبراهيم الوحى فى الرؤيا بذبح ابنه ، فلم يتلكأ فى طاعة الأمر ، وعرض على ابنه فلم يتردد ، وأسلم الوالد ولده ، وأسلم الولد عنقه ، طاعة لله تعالى ، كما سنفصل ذلك بعد.

* * *

٤ ـ الصبر على مشاق الدعوة إلى الله :

وهذا مجال رابع لخُلق الصبر فى القرآن ، وهو الصبر على مشاق الدعوة إلى الله تعالى ، وما يحف بها من متاعب وآلام ، تنوء بها الظهور ، وتضعف عن حملها الكواهل إلا من رحم الله . وذلك أن أصحاب الدعوة إلى الله يطلبون إلى الناس أن يتحرروا من أهوائهم وأوهامهم وموروثاتهم ومألوفاتهم ، ويثوروا على شهوات أنفسهم ، ومعبودات آبائهم ، وعادات أقوامهم ، وامتيازات طبقاتهم ،

---

(١) العنكبوت : ٥٨ ، ٥٩

(٢) محمد : ٣٣

(٣) البقرة : ٢٦٤

(٤) النحل : ٩٠ .

(٥) إحياء علوم الدين جـ ٤ .

وينزلوا عن بعض ما يملكون إلى إخوانهم،ويقفوا عند حدود الله فيما أمر ونهى ، وأحـــلّ وحــرّم ، وأكثر الناس لا يؤمنون بهذه الدعوة الجديدة فلهذا يقاومونها بكل قوة ، ويحاربون دعاتها بكل سلاح ، مدلين بأنهم أكثر مالاً ، وأعز نفراً ، وأقوى نفوذاً ، وأوسع سلطاناً .

فليس أمام دعاة الحق إلا أن يعتصموا باليقين ، ويتسلحوا بالصبر فى وجه القوة الضارية ، والسلطة الطاغية . فالصبر هنا ـ كما قال الإمام علىّ : سيف لا ينبو ، ومطيـة لا تكبو ، وضياء لا يخبو ، وكما جاء فى الحديث الصحيح : « الصبر ضياء » .

وهذا هو السر فى اقتـران التواصى بالصبر بالتواصى بالحق فى سورة العصر : ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (١) فلا بقاء للحق بغير صبر .

وهو السر فيما ذكره الله على لسان لقمان الحكيم حيث وصى ابنه بالصبر على ما يصيبه من بلاء وأذى عقب وصيتـــه له بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . قال الله تعالى على لسانه : ﴿ يَا بُنَىَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ، إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾(٢)

كأنه يقول له : ما دمت تدعو الناس إلى الخير،وتأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر ، فَوَطِّن نفسك على احتمال المكاره منهم ، وتقبل الأذى من جهتهم فهم خصوم لمن يأمرهم بالمعروف،لأنه ثقيل عليهـم ، وينهاهـم عن المنكر ، لأنه محبب إليهم .

ومشاق الدعوة إلى الله تتمثل فى صور شتى ، وقد ذكر القرآن منها أنواعاً وأمثلة :

(أ) تتمثل فى إعراض الخلق عن الداعية . فليس أشق على نفس صاحب الدعوة أن يدعو بملء فيه ، ويصيح بأعلى صوته ، بشيراً ونذيراً ، فلا يجـــد إلا آذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً !

---

(١) العصر : ٢ ، ٣ .　　　　(٢) لقمان : ١٧ .

رأينا ذلك مع نـوح عليه السلام ، حيث قـال مناجـياً ربـــه : ﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً ﴾ (١) .

ورأينـا ذلك مع هود عليه السلام حين قـال لـه لقومه :﴿ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

ورأينا ذلك مع خاتم الرسل محمد ﷺ ، حيث وصف الله حال قومه معه فقال : ﴿ حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ (٣) .

ولهـــذا قـــال اللـــه لرســوله : ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ ، وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ (٤).

وأوضح من يمثل هذا النوع من الصبر : نوح عليه السلام ، حيث لقى من الإعراض والصد ما لم يلقه نبى بعده .

(ب) وتتمثل متاعب الدعوة فى أذى الناس بالقول أو الفعل . فليس أشد على نفس الرجل المخلص فى دعوته ، البرئ من الهوى ، المحب لخير النـاس ، من أن يمحض لهـــم النصح ، فيتهموه بما ليس فيه ، وأن يدعوهم إلى سبيل ربه بالحكمة فيردوه بالقوة ، ويعظهم بالحسنى ، فيستقبلوه بالسوأى ، ويجادلهم بالتى هى أحسن ، فيقاوموه بالتى هى أخشن ، ويدلهم على الخير ، فيقذفوه بالشر ، ويصدع فيهم بكلمة الحق ، فلا يسمع منهم إلا كلمة الباطل .

وقد لا يقف الأمر عند هذا الحد ، فكثيراً ما يمتد الطغيان إلى الأموال فينهبها ، وإلى الأبدان فيعذبها ، وإلى الحريات فيسلبها ، والحرمات فينتهكها ،

---

(١) نوح : ٥ ـ ٧
(٢) هود : ٥٣
(٣) فصلت : ١ ـ ٥
(٤) النحل : ١٢٧

بل إلى الأنفس فيقتلها، حتى الأرض التى نبتوا منها ، وشبوا عليها ، ونشأوا فى أحضانها،هم وآباؤهم وأجدادهم يُخرجون منها إخراجاً .

وهذا ما أقسم القرآن على وقوعه للداعين إلى الله ، حيث خاطب بذلك المؤمنين ليوطنوا أنفسهم على الصبر الطويل فقال : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فى أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ منَ الَّذينَ أُوتُوا الْكتَابَ منْ قَبْلكُمْ وَمنَ الَّذينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثيراً ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلكَ منْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ (١) .

ومن هنا أمر الله رسوله أن يصبر على إيذاء قومه بمثل قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَميلاً ﴾ (٢) .

والأنبياء جميعاً يمثلون هذا النوع من الصبر . ولهذا حكى الله على لسانهم هذا القول رداً على أقوامهم : ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا ، وَعَلَى اللَّه فَلْيَتَوكَّلِ الْمُتَوكِّلُونَ ﴾ (٣) .

وَعزّى الله خاتم رسله بما حدث لإخوانه من قبله فقال : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ منْ قَبْلكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ، وَلاَ مُبدِّلَ لكَلمَاتِ اللَّه ﴾ (٤) .

ومن أتباع الرسل ذكر لنا القرآن هنا مثلاً رائعاً يتجلى فى سحرة فرعون ، حين وقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فأعلنوا إيمانهم برب موسى وهارون . وعندها قال لهم فرعون : ﴿ آمَنْتُمْ به قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ، إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فى الْمَدينَة لتُخْرِجُوا منْهَا أَهْلَهَا ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لأُقَطِّعَنَّ أَيْديَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ منْ خلاَف ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعينَ ﴾ (٥) .

فماذا كان موقف السحرة إزاء هذا الوعيد الهادر من ملك جبار يقول للناس : أنا ربكم الأعلى ؟

لقد وقفوا بإيمانهم الجديد كالجبال الشم ، متحدين جبروت فرعون ، مستعدين لكل ما يُرغى به ويُزبد ، سائلين الله تعالى أن يُفرغ عليهم صبراً يتحملون به العذاب راضين ، ويستقبلون به المكاره مطمئنين .

---

(١) آل عمران : ١٨٦ (٢) المزمل : ١٠ (٣) إبراهيم : ١٢
(٤) الأنعام : ٣٤ (٥) الأعراف : ١٢٣ ، ١٢٤ .

ومن هنا قالوا : ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ، رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ (١) .

(جـ) وتتمثل مشاق الدعوة كـذلك فى صـورة أخـرى هى طـول الطريـق ، واستبطاء النصر، فقد جعل الله العاقبة للمتقين ، وكتب النصر لدعاة الحق من رسله وأتباعهم وورثتهم المؤمنين . ولكن هذا النصر لا يتحقق بين عشية وضحاها ، ولا تشرق شمسه إلا بعد ليل طويل حالك من الشدائد والمحن المتعاقبة ، تزيغ لهولها الأبصار ، وتبلغ القلوب الحناجر ، ويظن الناس بالله الظنون ، هنالك يُبتلى المؤمنون ويُزلزلون زلزالا شديداً ، كما صوَّر القرآن الحالة النفسية للمسلمين فى غزوة الأحزاب .

وكم أكد القرآن هذه الحقيقة فى أكثر من موضع ، وبأكثر من أسلوب ، فهو يخاطب المؤمنين فيقول : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ ، أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ ﴾ (٢) .

يقـولون متى نصر الله ؟ استبطاءً له ، واستعجالاً لمجيئه ، فيجئ معه الغوث للملهوف ، والفرج للمكروب .

ويقول جل شأنه : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ، فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ ، وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (٣) .

* * *

٥ ـ الصبر حين البأس :

ومجال آخر يذكره القرآن للصبر هو الصبرحين البأس ، أى الصبر فى الحرب حين لقاء الأعداء ، حيث يصبح الفرار كبيرة موبقة ، ويصبح الثبات فريضة لازمة . فالصبر هنا شرط أساسى للنصر ، وعنصر ضرورى للغلبة على العدو ، وقديماً قالوا : الشجاعة صبر ساعة . ومن هنا أثنى القرآن على الصابرين فى آية البر ، فقال : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ (أى الفقر) وَالضَّرَّاءِ (أى المرض) وَحِينَ الْبَأْسِ (أى الحرب) ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾ (٤) .

---

(١) الأعراف : ١٢٥ ـ ١٢٦ (٢) البقرة : ٢١٤ .
(٣) يوسف : ١١٠ . (٤) البقرة : ١٧٧ .

وفى سورة الأنفال وهى السورة التى نزلت بعد غزوة بدر الكبرى يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ، وَاصْبِرُوا ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (١) . فوضع ستة شروط أولها : الثبات . وخامسها : الصبر ، وهما من باب واحد ، فلا ثبات بغير صبر

ويؤكد القرآن الأمر بالصبر بهذه الفاصلة التى ختمت بها الآية الكريمة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ليغرى الأنفس به ، ويثبت القلوب عليه .

وفى نفس السورة يربط القرآن بين الصبر فى القتال والغلبة على العدو ، فيقول : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ * الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٢) .

وأعظم ما تشتد به الحاجة إلى الصبر فى الحرب عندما ينفرط العقد ، وتميل الريح ويضطرب الأمر ، وتشيع روح الهزيمة فى المقاتلين ، وتنتشر الشائعات المثبطة للهمم ، المحطمة للعزائم ، كما حدث فى غزوة أحد ، بعد أن أخلى الرماة أماكنهم فانكشف جيش المسلمين ، وانقض عليهم فرسان المشركين من الخلف ، فاضطرب الميزان ، وانتشر الذعر ، وشاعت الشائعات بأن رسول الله ﷺ قد قُتل ، فأوهن ذلك صفوف المسلمين وفت فى أعضادهم ، وزلزل روحهم المعنوية ، ففر الأكثرون وبقى الأقلون ، وهنا نزل القرآن يشيد بالذين ثبتوا وصبروا ، وينكر على الذين تولوا وأدبروا : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ * وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ (٣) ولا يجعل لهم عذراً فى الفرار من

---

(١) الأنفال : ٤٥ ـ ٤٧ .　　(٢) الأنفال : ٦٥ ـ ٦٦ .

(٣) آل عمران : ١٤٢ ـ ١٤٣ .

المعركة ، ولو كان قد صح ما أشيع أن الرسول قد قُتل ، يقول : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً ، وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ (١) .

إلى أن يقــــول : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ، وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾(٢)

إن خير من يمثل هذا النوع من الصبر فى القرآن : طالوت والقلة المؤمنة معه من جنوده ، وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، على عدد أهل بدر . ولقد عقد طالوت لجنوده امتحاناً فى بادىء الأمر ليختبر صبرهم ، فقال لهم : ﴿ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ، فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ ﴾ (٣) .

هذه القلة التى نفذت الأمر ، وأبت أن تشرب الماء وهى ظمأى إلا غرفة باليد ، هى التى نجحت فى الامتحان ، وتبين صبرها عند الشدة . وهى التى اجتازت النهر مع طالوت : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ (أى لكثرة عددهم وعدتهم) ، قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُوا اللهَ (أى من هؤلاء المؤمنين) كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ ، وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٤) . طلبوا أولاً أن يمنحهم الله الصبر ، لأنه سبيل النصر . ومن روعة التعبير هنا أنهم لم يسألوا الله أى قدر من الصبر ، بل سألوه أن يُفرغه عليهم إفراغاً ، أى يَصبُّه عليهم صباً ، كأنه ماء يُفرغ عليهم ليتطهروا به ويغتسلوا .

وكانت العاقبة انتصار القلة المؤمنة الصابرة على الكثرة الطاغية الكافرة : ﴿ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ ، وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ ﴾ (٥) . .

* * *

---

(١) آل عمران : ١٤٤ . (٢) آل عمران : ١٤٦ . (٣) البقرة : ٢٤٩ .
(٤) البقرة : ٢٤٩ ـ ٢٥٠ . (٥) البقرة : ٢٥١ .

٦ ـ الصبر فى مجال العلاقات الإنسانية :

وهـــذا مجال سادس من مجالات الصبر فى القرآن ، وهـــو مجال الآداب والعـــلاقـات الاجتماعية بين الناس .

فالعلاقات الزوجية لا تستقيم ولا تستقر إلا بأن يكون الزوجان واقعيين يصبر كل منهما على صاحبـــه ، ويحتمل منه بعض ما لايروقـــه ، بل بعض ما يؤذيه .

فالحياة تختلط فيها الأشواك بالأزهار ، وتمتزج فيها الآلام بالملذات ، وكل إنسان فيه ما يُمدح وما يُذَم ، ومن ذا الذى تُرضَى سجاياه كلها ؟

بـــل أمر القرآن الرجال بالصبر وإن أحس أحدهم بالنفرة والكراهية فى نفسه قبَل زوجه ،مُقَدِّماً العقل على العاطفة ، والانقياد للأخلاق على اتباع الهوى .

وفى هذا يقـــول القرآن فى معاملة الأزواج للنساء : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوف ، فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً ﴾(١) .

وجاء الحديث النبوى الشريف يؤكد هذا المعنى القرآنى إذ قال : « لا يفرك (أى يبغض)مؤمن مؤمنة ، إن سخط منها خُلُقاً رضى منها آخر » (رواه أحمد ومسلم).

وهذا النوع من الصبر مطلوب فى علاقة الآباء مع أبنائهم ، والأبناء مع آبائهم ، والأقارب مع أقاربهم ، والجيران مع جيرانهم ، فقد قال علماؤنا : « إن حق الجار ليس هو مجرد كف الأذى عنه ، بل احتمال الأذى منه والصبر عليه».

ويدخل فى هذا إلجام النفس بلجـــام الحلم ، وكفها عن الاستجابة لثورة الغضب ودواعى الانفعال ، والحرص على دفع السيئة بالحسنة بل التى هى أحسن ـ كما أوصى القرآن ـ فيحيل هذا السلوك الجميل العدو إلى صديق ، فيكسب إلى صفه قلباً محباً ، بدل أن يضيف إلى أعدائه واحداً .

يقـــول تعـــالى : ﴿ وَلاَ تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ، ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَـإِذَا الَّـــذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَـدَاوَةٌ كَـأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَـــا (أى هذه الخصلة الحميدة) إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ *

---

(١) النساء : ١٩ .

وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾(١).

ويُعَدِّد القرآن أوصاف أُولى الألباب الذين يستحقون عُقبى الدار، أى الجنة ، فيقول : ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِراً وَعَلاَنِيَةً وَ يَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (٢) .

إن فرق ما بين الإنسان المتحضر وغيره ، أنه يقدر على ضبط نفسه ، والتحكم فى عواطفه وانفعاله ، وتوجيه سلوكه وعلاقاته الوجهة الإنسانية التى تُرضى الأذواق الراقية والآداب الرفيعة ، ولا تجرح إحساس أحد أو تؤذيه بغير موجب .

وهذا ما يُصوِّره لناالقرآن إذ عرض علينا صورة أُولئك الجُفاة من أعراب البادية الذين جاءوا إلى حجرات أزواج النبى ـ أُمهات المؤمنين ـ ينادون بأصوات جاهرة ، وجلافة ظاهرة : اخرج إلينا يامحمد . غير مراعين ما تقتضيه اللياقة والأدب فى معاملة شخصية مثل شخصية الرسول الكريم ، لها مقامها ومشاغلها وأعباؤها. ولا غَرو أن نزل القرآن يُنَدِّد بهذا المسلك الفج الجافى ، وإن قَدَّر ظروف بداوتهم ، وأعلن العفو والمغفرة عنهم فى النهاية ، وفى هذا يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٣) .

وفى هذا المجال من مجالات الصبر يمكننا أن نُدخل صبر التلميذ مع أُستاذه ، والتزامه بما عقد من شرط ، وإن حجز عنه بعض المعلومات أو الحقائق ، لحكمة يراها ، وخصوصاً إذا صحبه على هذا الشرط ، فالمؤمنون عند شروطهم .

وفى هذا ذكر القرآن قصة موسى والعبد الصالح الذى لقيه موسى مع فتاه : ﴿ فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً *

---

(١) فصلت : ٣٤ ـ ٣٦ .
(٢) الرعد : ٢٢ .
(٣) الحجرات : ٤ ـ ٥ .

قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً * قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً * قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْراً * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * قَالَ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلاَماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي ، قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً .... ﴾ (١) .

فقد طلب موسى من العبد الصالح المشهور باسم الخضر ، أن يصحبه ليُعَلِّمه مما عَلَّمه الله ، فذكر له أنه لن يستطيع صبراً على متابعته ، وعلّل هذا بأمر ينبع من دافع فطرى أصيل فى الإنسان ، وهو حب الاستطلاع والرغبة فى استكشاف المجهول ، ولهذا قال لموسى : ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴾ ؟! (٢).

ولكن موسى قَبِلَ مصاحبته مؤكداً له أنه سيصبر على ما يراه منه ، وإن لم يُحَط به خُبراً ، ولم يدرك له سراً : ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْراً ﴾ (٣) .

ولكن موسى - عليه السلام - يرى من الخضر من المواقف والتصرفات ما لا يملك معه السكوت والصبر فيعترض مرة بعد مرة ، منكراً عليه ما صنع ، مخالفاً ما وعد به من الصبر . والخضر يُذكره بذلك كلما أبدى اعتراضاً . ففى أول إنكار له قال : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ

(١) الكهف : ٦٥ - ٧٦ .
(٢) الكهف : ٦٨ .
(٣) الكهف : ٦٩ .

تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ [1] ، وفى المرة الثانية قال : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ [2] ؟

أما فى المرة الثالثة فكانت الفاصلة . وهنا قال العبد الصالح : ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ، سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً ﴾ [3] ويأخذ فى تأويل الحوادث الثلاث ، إلى أن يقول فى نهايتها : ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً ﴾ [4] .

* * *

(1) الكهف : ٧٢ .

(2) الكهف : ٧٥ .

(3) الكهف : ٧٨ .

(4) الكهف : ٨٢ .

الفصل الثالث

مَنزِلَةُ الصَّبرِ وَالصَّابِرِينَ فِى القُرآنِ

المتتبع للمواضع التى ذُكر فيها الصبر والصابرون فى القرآن الكريم يتضح له بجلاء لا يقبل الشك ، أن الصبر مقام من أرفع مقامات الدين ، وخُلُق من أعظم أخلاق المؤمنين ، ومنزلة من أجل منازل الصالحين ، وشعبة من أبرز شعب الإيمان ، وعروة من أوثق عرى الإسلام ، حتى إن القرآن جعله مفتاح كل خير ، وباب كل سعادة فى الدنيا والآخرة .

والدليل على ذلك عدة أمور :

أولاً ـ اقتران الصبر بالقيم الروحية العليا فى الإسلام :

إن القرآن الكريم قرن بين الصبر وبين قيم الدين العليا ، وأخلاقه المثلى ، ومثله الفضلى ، واقتران الشئ بالشئ ، أداة من أدوات القرآن الرائعة فى الدلالة على المعانى وتثبيتها . من ذلك أنه قرن الصبر :

(أ) باليقين فى قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ، وكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (١) .

والمراد باليقين ـ كما يقول الإمام الغزالى ـ المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده إلى أصول الدين .

والمراد بالصبر : العمل بمقتضى اليقين ، إذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارة والطاعة نافعة ، ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة ، إلا بالصبر ، وهو استعمال باعث الدين فى قهر باعث الهوى والكسل . فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار (٢) (يعنى باعتبار أن الإيمان يُطلق على التصديق والأعمال جميعاً ، فيكون له ركنان أحدهما يمثل المعرفة والتصديق وهو اليقين ، والآخر يمثل الحركة والعمل ، وهو الصبر . وهذا هو سر الاقتران بينهما) .

---

(١) السجدة : ٢٤ .

(٢) الإحياء جـ ٤ ص ٦٦ .

ثم إن شياطين الإنس والجن يغزون قلب الإنسان بسلاحين .
أحدهما : سلاح الشهوات لإفساد سلوكه ، فيغوى .
والثانى : سلاح الشبهات لإفساد فكــره ، فيضــل .
وعلى المؤمن أن يصد هذا الغزو ويجاهد هؤلاء الأعداء بسلاحين أمضى وأقوى ، هما :

١ ـ سلاح الصبر ، ليجاهد به الأهــواء والشهوات .

٢ ـ وسلاح اليقين ، ليجاهد به الشكوك والشبهات .

وبهذين ينتصر فى داخله الإنسان على الحيوان والشيطان .
(ب) وبالشكر ، فى مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ .
وقد تكررت هذه الفاصلة القرآنية أربع مرات فى أربع سور مكية [1] .
ويقول بعض المفسرين فى معنى ﴿ كُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾، أى كل مؤمن ، لأن الإيمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر .
ويشرح الإمام الغزالى معنى نصفيّة الصبر للإيمان ، فيذكر أن الإيمان كما يُطلق على التصديق القلبى والأعمال الناتجة عنه ، قد يُطلق باعتبار آخــر ـ على الأحوال النفسية المثمرة للأعمال . وعند ذلك ينقسم ما يلاقيه الإنسان إلى ما ينفعه فى الدنيا والآخرة . أو يضره فيهما . وله بالإضافة إلى ما يضره حال «الصبر».. وبالإضافة إلى ما ينفعه حال «الشكر» ، فيكون «الشكر»أحد شطرى الإيمان بهذا الاعتبار ، كما أن « اليقين » أحــد الشطرين بالاعتبار السابق . وبهذا النظر قال ابن مسعود رضى الله عنه : « الإيمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر » [2]. وقد يُرفع أيضاً إلى رسول الله ﷺ.

---

(١) سورة إبراهيم : ٥ ، ولقمان : ٣١ ، وسبأ : ١٩ ، والشورى : ٣٣ .

(٢) قال الغزالى : ولما كان الصبر صبراً عن باعث الهوى بثبات باعث الدين ، وكان باعث الهوى قسمين : باعث من جهة الشهوة ، وباعث من جهة الغضب ، فالشهوة لطلب اللذيذ ، والغضب للهرب من المؤلم ، وكان الصوم صبراً عن مقتضى الشهوة فقط ، وهى شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب ـ قال صلى الله عليه وسلم بهذا الاعتبار : « والصوم نصف الصبر » لأن كمال الصبر عن دواعى الشهوة ، ودواعى الغضب جميعاً ، فيكون الصوم بهذا ربع الإيمان . فهكذا ينبغى أن تفهم تقديرات الشرع . (الإحياء جـ ٤ ص ٦٦) .

وقد جمع الرسول ﷺ بين الشكر والصبر فى حديثة حين قال : « عجباً لأمر المؤمن ! إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له » [1].

(جـ) وبالتوكل ، فى مثل قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [2] ، وقوله : ﴿ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [3] .

وإنما جمع بين الصبر والتوكل ، لأن نجاح الإنسان فى تحقيق مراده يتوقف على أمرين : أمر من جانبه ، وفى وسعه ، من جهود تُبذل ، وأثقال تُحمل ، وصعاب تُذلَّل ، وهذه كلها تحتاج إلى صبر .

والأمر الآخر : ما لا يملكه ، وليس فى وسعه ، مما يضمره الغيب ، وتخبئه الأقدار ، من أحداث كونية ، وظروف خارجية ، ومفاجآت غير متوقعة ولا محسوبة ، ورياح تُجرى السفن بما لا تشتهى . فهذه لا يملك المؤمن إزاءها إلا التوكل على الله ، والالتجاء إليه ، والثقة بتدبيره ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [4] عزيز : لا يذل من التجأ إليه . حكيم : لا يضيع من وثق بتدبيره .

(د) وبالصلاة ، فى مثل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [5] .

والصبر هنا يمثل دور الإرادة البشرية ، أما الصلاة فهى ـ كالتوكل ـ تمثل دور المعونة الإلهية ، ولا غنى للمؤمن عنها . ونحو ذلك قوله تعالى فى

---

(١) رواه مسلم .
(٢) النحل : ٤١ ـ ٤٢ .
(٣) العنكبوت : ٥٨ ـ ٥٩ .
(٤) الأنفال : ٤٩ .
(٥) البقرة : ١٥٣ .

سورة هود : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَي النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ، ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ * وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) .

(هـ) وبالتسبيح وبالاستغفار ، فى مثل قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴾ (٣) .

(و) وبالجهاد ، فى مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ . . . ﴾ (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٥) .

ومعلوم أن الجهاد هو ذروة سنام الإسلام كما فى الحديث النبوى الذى رواه الترمذى عن معاذ ، وأن احتمال مشقات الجهاد ومتاعبه ، وما فيه من بذل النفس والنفيس فى سبيل العقيدة لا يتم إلا بالصبر . فلـذا جمع بينهما .

(ز) وبعمل الصالحات ، فى قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (٦) .

ولا ريب أن عمـل الصالحات لا يتحقق إلا بالصبر ، والصبر قبل العمل بإخلاص النية وتنقيته من شوائب الرياء ، فإنما الأعمال بالنيات ، والصبر أثناء العمل ، بإتمامه على الصورة المرادة للشرع ، الموافقة للسنة ، والصبر بعده بألا يأتى بما يبطله من العُجب والغرور ونحـو ذلك من المفسدات للأعمال الصالحة ، كما قال تعالى : ﴿ وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ (٧) ، وقال : ﴿ لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى ﴾ (٨) .

---

(١) هـود : ١١٤ ـ ١١٥ .
(٢) الطـور : ٤٨ .
(٣) غـافر : ٥٥ .
(٤) محمـد : ٣١ .
(٥) النحـل : ١١٠ .
(٦) هـود : ١١ .
(٧) محمـد : ٣٣
(٨) البقـرة : ٢٦٤

(ح) وبالتقوى ، فى مثل قولـــه تعالى : ﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَـزْمِ الأُمُورِ ﴾ (١) ، ﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ (٢) ، ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣).

قال فى « قوت القلوب » : « والتقوى والصبر معنيان أحدهما منوط بالآخر ، لا يتم كل واحد منهما إلا بصاحبه ، فمن كـــانت التقـــوى مقامه كان الصبر حالـــــه ، فصار الصبر أفضل الأحوال ، من حيث كانت التقوى أعلى المقامات ، إذ الأتقى هــو الأكـرم عند الله ، والأكرم على الله هو الأفضل » (٤) .

(ط) وبالحق فى سورة العصر حيث قـــال تعـــالى : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (٥) .

فجعله أحد الأركان الأربعة التى لا بد منها لنجاة الإنسان ـ كل إنسان ـ من خسران الدنيا والآخرة ، وهى الإيمان والعمل الصالح ، والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر ، وإنما قرن التواصى بالصبر بالتواصى بالحق ، للدلالة على أن تكاليف الحق ثقيلة ، وأعباءه جسيمة ، وأن طريقه محفوفة بالمكاره ، مزروعة بالأشواك ، فلا بد لمن جند نفسه للحق موصياً به وداعياً إليه ، أن يوطن نفسه على الصبر فى سبيله ، فلا يُنصر حق بغير صبر ، ولا تستغنى جماعة تتواصى بالحق عن التواصى بالصبر .

ونظير هذا ما جاء فى وصية لقمان لابنه : ﴿ يَا بُنَىَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ، إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ (٦) . فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا بد أن يجرا على صاحبهما الأذى من الخلق ، فلا غرو إن قرنت الوصية الحكيمة بينهما وبين الصبر على ما يصيب المرء ، تأكيداً للمعنى الذى ذكرناه .

---

(١) آل عمران : ١٨٦
(٢) آل عمران : ١٢٠ .
(٣) يوسف : ٩٠ .
(٤) قوت القلوب جـ١ ص ١٩٧
(٥) سورة العصر .
(٦) لقمان : ١٧

ومن تعظيم الصبر هنا : أنه كرر لفظة التواصى به ، ولم يكتف بعطفه على الحق دون إعادة صيغة التفاعل ، وذلك للتنبيه والتأكيد على مكانة الصبر ، وأهميته المستقلة بذاتها ، واستحقاقه لأن يتواصى به أصلاً لا تبعاً .

(ى) وبالرحمة فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ (١) .

وقد جاء ذلك بعد قوله تعالى : ﴿ فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ (٢) .

فكلمة «ثم » هنا للدلالة على الترقى من درجة إلى أعلى منها . فليست « ثم » هنا للترتيب والتراخى فى الزمن ، بل فى الرتبة والدرجة . مما ينبئ بالقيمة العليا لما ذُكر بعدها . وهو يتمثل فى ثلاثة أشياء : الإيمان ، وهو بلا ريب أساس البناء ، ومحور كل خير وصلاح . والتواصى بالصبر ، وهو أساس النجاح والنجاة فى الدنيا والآخرة . ولم يكتف القرآن بطلب التحلى بالصبر ، بل طلب التواصى به ، لما ذكرناه فى سورة العصر ثم قرن به التواصى بالمرحمة ، لأن المرحمة هى المحرك لفعل الخير ، والإحسان إلى الناس ، وبخاصة أهل الضعف والحاجة ، كالرقيق واليتيم والمسكين .

ومما يلاحظه المتتبع لألفاظ القرآن أن كلمة « تواصوا » لم ترد فيه إلا أربع مرات : اثنتان فى سورة «العصر » ، ومثلهما فى سورة « البلد » . وقد كان له ـ أى الصبر ـ مرتان من هذه الأربع ، وهذا يدل على أمرين :

أولهما : فضله ومكانته وأهميته فى دين الله وحياة المؤمنين .

ثانيهما : مشقته على النفوس ، بحيث يحتاج إلى التوصية والتذكير به بين المؤمنين بعضهم وبعض . فكل فرد مؤمن عليه أن يوصى غيره بالصبر كما يقبل الوصية به منه .

* * *

---

(١) البلد : ١٧ .

(٢) البلد : ١١ ـ ١٨ .

ثانياً ـ التنويه بمكانة الصابرين وموضعهم فى أهل الإيمان :

نوّه القرآن بمكانة الصابرين ، وبَيّن موضعهم من أهل الإيمان والتقوى . الفائزين بالجنة والناجين من النار .

(أ) ففى بيان القرآن لحقيقة البر وصفات الأبرار ، رداً على اليهود المتمسكين بالرسوم والشكليات الفارغة من روح التدين الحق ، والذين جعلوا الدين مجرد مظاهر سطحية لا تحقق براً، ولا تنشئ تقوى. ولهذا أقاموا الدنيا وأقعدوها من أجل تحويل المسلمين قبلتهم من جهة إلى أخرى بأمر ربهم .

هنا يرسم القرآن المعالم الأساسية للبر والتقوى ـ وبعبارة أخرى ـ للتدين الحقيقى الصادق ، لا التدين الوراثى الزائف ، فيقول فى سورة البقرة : ﴿ لَيْسَ البِرَّ أَنْ تُوَلّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ باللَّه واليَوْمِ الآخِرِ والملائكَةِ والكِتَابِ والنَّبِيِّينَ ، وَآتَى المَالَ عَلَى حُبِّه ذَوِى القُرْبَى واليَتَامَى والمَسَاكِينَ وابْنَ السَّبِيلِ والسَّائلِينَ وَفِى الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وآتَى الزكَاةَ ، والمُوفُونَ بَعْهدهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، والصَّابِرينَ فِى البَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وَحِينَ البَأْسِ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ، وأُولَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ ﴾[1] .

تحدثت الآية عن بر العقيدة : من الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وبر العمل من إيتاء المال على حبه ذوى القربى ومن بعدهم ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ... وبر الأخلاق ، فذكرت خُلُقين رئيسيين هما: الوفاء بالعهد ، وهو يشمل العهد مع الله ، والعهد مع النفس ، والعهد مع الناس . والصبر فى البأساء (الفقر والحاجة) ، والضراء (المرض والألم) ، وحين البأس (ساحات المعارك والحروب) .

وقد ميزت الآية الصبر هنا حين غيرّت إعراب « الصابرين » من حالة الرفع عطفاً على « الموفون » قبلها . إلى حالة النصب ، دلالة على الاختصاص وتنبيهاً للقارئ العارف ليقف عند هذا الوصف المتميز ، كأنه يقول : وأخص بالذكر أو المدح والثناء هنا : ﴿ الصَّابِرِينَ فِي البَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وَحِينَ البَأْسِ ﴾

---

(١) البقـرة : ١٧٧

ثـــم يجئ ختام الآية ملاصقاً لهم ، ومتصلا بهم ﴿ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ .

(ب) وفى حديث القرآن عن صفات المتقين الذين أعد لهم جنته ورضوانه فى سورة آل عمران ، يجعل اتصافهم بالصبر فى مقدمة ما تحلوا به من أخلاق بعد الإيمـــان بالله تعالى وذلك إذ يقـــول : ﴿ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴾ (١) .

(جـ) وفى بيان القرآن لأوصاف المخبتين ـ وهم أهل الخشوع والتواضع والطمأنينـــة والسكينة ـ فى سورة الحج ، يجعل الله تعـالى الصبر مـن أجمل حلاهـــم ، وأبرز مـــزايـاهم : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (٢) فقد ذكر الصبر بعد وجل القلوب من ذكر الله ، وقبل إقامة الصلاة والإنفاق مما رزق الله . فالمخبتون لهـــم وصفان نفسيان هما : الوجل والصبر ، ووصفان عمليان هما : الصلاة والإنفاق .

(د) وفى سورة الأحزاب يُعَدِّدُ الله المقامـــات الدينيـــة ، والفضائل الخُلُقية للجنسين من المسلمين والمسلمات ممن أعد لهم المغفرة والأجر العظيم . فيرينا الصبر إحدى السمات البارزة فيقـول : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَـافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٣) .

* * *

---

(١) آل عمران : ١٥ ـ ١٧ .

(٢) الحج : ٣٤ ـ ٣٥ .

(٣) الأحـــزاب : ٣٥ .

ثالثاً ـ ترتيب خيرات الدنيا والآخرة على الصبر :

رتب القرآن خيرات الدنيا والآخرة على فضيلة الصبر ، فالنجاح فى الدنيا والفلاح فى الآخرة ، والفوز بالجنة والنجاة من النار ، وكل خير يحرص عليه الفرد أو المجتمع ، منوط بالصبر ، من هذه الخيرات التى ذكرها القرآن :

١ ـ معية الله تعالى للصابرين : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١) ، وقد ذُكرت هذه المعية فى القرآن فى عدة مواضع :

(أ) فى سورة البقرة حيث أمر تعالى المؤمنين أن يستعينوا على أمورهم بالصبر والصلاة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٢) .

(ب) وفى السورة ذاتها على لسان المؤمنين من أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ، ولم يشربوا منه إلا من اغترف غرفة بيده : ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٣) .

(جـ) وفى سورة الأنفال حيث أمر الله المؤمنين بما يلزمهم لمواجهة العدو من شرائط النصر ، وأحدها الصبر : ﴿ وَاصْبِرُوا ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٤) .

(د) وفى نفس السورة فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ * الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٥) .

وهى معية خاصة تتضمن الحفظ والرعاية والتأييد والحماية ، وليست معية العلم والإحاطة ، لأن هذه معية عامة لكل الخلق : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾(٦) .

---

(١) البقرة : ١٥٣ .
(٢) البقرة : ١٥٣ .
(٣) البقرة : ٢٤٩ .
(٤) الأنفال : ٤٦ .
(٥) الأنفال : ٦٥ ـ ٦٦ .
(٦) الحديد : ٤ .

٢ ـ محبة الله تعالى لهم : ﴿ وَكَأَيِّن مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾(١).

٣ ـ إطلاق البشرى لهم بما لم يجمع لغيرهم : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ (٢). ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ (٣) فجمع لهم بين الصلوات من الله والرحمة وبين الاهتداء . وكان عمر يقرؤها ويقول : نِعْمَ العدلان ، ونعمت العلاوة للصابرين . يعنى بالعدلين : الصلاة والرحمة . وبالعلاوة : الهدى . والعلاوة : ما يحمل فوق العدلين على البعير .

٤ ـ إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٤) .

٥ ـ توفيتهم أجورهم بغير حساب : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾(٥) فما من قُربة ـ كما قال الإمام الغزالى ـ إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر. ولأجل كون الصوم من الصبر ، وأنه نصف الصبر ، قال الله تعالى ـ أى فى الحديث القدسى ـ :« الصوم لى وأنا أجزى به » فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات (٦) .

٦ ـ ضمان النصرة والمدد لهم . قال تعالى : ﴿ بَلَى ، إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِنْ فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ (٧) ، وقال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ (٨) . . وفى هذا جاء الحديث :« واعلم أن النصر مع الصبر » .

٧ ـ الحصول على درجة الإمامة فى الدين . نقل العلامة ابن القيم عن شيخ الإسلام ابن تيمية قوله : « بالصبر واليقين تُنال الإمامة فى الدين » . ثم تلا

---

(١) آل عمران : ١٤٦. (٢) البقرة : ١٥٥ (٣) البقرة : ١٥٧ .
(٤) النحل : ٩٦ . (٥) الزمر : ١٠ .
(٦) إحياء علوم الدين جـ ٤ ص٦٢ ط ، دارالمعرفة ببيروت .
(٧) آل عمران : ١٢٥ . (٨) الأعراف : ١٣٧

قولـه تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (١) .

وقرأ الإمام سفيان بن عيينة الآية فقال : « أخذوا برأس الأمر فجعلهم رؤساء » .

٨ ـ الثناء عليهم بأنهم أهـل العـزائم والرجـولـة : ﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ (٢) ، ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ (٣) ، وفى وصية لقمان لابنه : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ، إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ (٤) ، وفى هذا قيل : الصبر مُرٌّ ، لا يتجرعه إلا حُرٌّ .

٩ ـ حفظهم من كيد الأعداء : ﴿ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (٥) .

١٠ ـ استحقاقهم دخـول الجنـة ، وتسليم الملائكة عليهم . قـال تعالى : ﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً ﴾ (٦) ، ﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاَماً ﴾ (٧) ، ﴿ وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (٨) .

١١ـ انتفاعهم بعبر التاريخ واتعاظهم بآيات الله فى الأنفس والآفاق .قال تعالى لموسى : ﴿ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (٩) . وقال بعد ذكر قصة سبأ ما صنع الله بهم جزاء كفرهم : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (١٠) .

وقال تعالى فى شأن السفن البحرية الضخمة : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلاَمِ * إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (١١) .

* * *

---

(١) السجدة : ٢٤ (٢) آل عمران : ١٨٦ (٣) الشورى : ٤٣ (٤) لقمان : ١٧

(٥) آل عمران : ١٢٠ (٦) الإنسان : ١٢ (٧) الفرقان : ٧٥ (٨) الرعد : ٢٣ ـ ٢٤

(٩) إبراهيم : ٥ (١٠) سبأ : ١٩ (١١) الشورى : ٣٢ ـ ٣٣ .

الفصل الرابع

شخصيات صابرة ذكرها القرآن

ومن دلائل عناية القرآن بفضيلة الصبر ، وحرصه على توجيه المسلمين للتحلى بها ، وتربيتهم على ممارستها خُلقاً وسلوكاً ، ماعرضه من خلال قصصه من شخصيات تُعَد أمثلة رائعة فى التحلى بالصبر فى ألوانه المتعددة ، ومجالاته المتنوعة .

من هذه الشخصيات أو النماذج :

● **أيـــوب :**

ولعل اسم أيوب أشهر الأسماء التى تقترن بالصبر كلما ذُكرت ، حتى ضرب الناس به المثل فقالوا : صبر أيوب .

وصبر أيوب كان على ما أصابه من ضُرٍّ فى بدنه ، وعلى فقده أهله ، وإن لم يصل حد المرض الـــذى أصابه إلى ما حكته الإسـرائيليات والروايات المكذوبة ، وتلقفه الخيال الشعبى فأضاف إليه وزاد فيه ، من بـــدن مقـروح يتناثر منه الدود ، وجسم عليل يكاد يشبه الرِّمة البالية ، إلى غير ذلك مما يستحيل على رسل الله أن يصابوا به ، حتى لا ينفر منهم الناس الذين يدعونهم إلى الله .

يقـــول تعـــالـــى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ، كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١) .

ومن لطائف الأدب فى نداء أيوب لربه أنه لم يسأله شيئاً معيناً كالشفاء أو العافية ، أو إعادة الأهل إليه ، إنما اكتفى بأن ذكر نفسه بالحاجة والضعف

---

(١) الأنبياء : ٨٣ ـ ٨٥

وذكر ربه بما هو أهله . ولم يزد على ذلك شيئاً : ﴿ أنّى مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (١) .

ويقول تعالى فى سورة (ص) مخاطباً رسوله : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ * ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ، هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ * وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ ، إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً ، نِعْمَ الْعَبْدُ ، إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (٢) .

وفى هذه الآيات تكريم وأى تكريم ، وتشريف أى تشريف ، من الله تعالى لأيوب عليه السلام . حيث بدأ القصة بخطاب رسوله محمد ﷺ بقوله: ﴿ وَاذْكُرْ .. ﴾ وهذه العبارة تحمل معنى التخليد للمذكور بعدها فى أعظم كتب الله ، وجعله موضع الاقتداء والتأسى فيما اختص به من فضيلة ، لأعظم رسل الله .

فهذه ـ كما قال أبو طالب المكى ـ كلمة مباهاة : باهى بأيوب عند رسوله المصطفى عليه السلام ، وشرّفه وفضّله ، بقوله :«اذكر يا محمد... » ، فأمره بذكره والاقتداء به كقوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (٣) .

وشرّف الله أيوب مرة أخرى بقوله ﴿ عَبْدَنَا ﴾ فأضافه إليه إضافة تخصيص وتقريب ، ولم يدخل بينه وبينه لام الملك ، فيقول : عبداً لنا .

وشرّفه مرة ثالثة حين استجاب له نداءه ورد عليه عافيته ، ووهب له أهله ومثلهم معهم ، رحمة منه وذكرى لأولى الألباب .

ومرة رابعة حين جعل له مخرجاً من يمين حلفه على امرأته ، وهو فى مرضه تخليصاً له من مأزق الحنث ، وتكريماً له على جميل صبره .

وتوج هذا كله بهذا التذييل الكريم بهذه العبارة الندية : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً ، نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾.

---

(١) الأنبياء : ٨٣ . (٢) سورة ص : ٤١ ـ ٤٤ . (٣) الأحقاف : ٣٥ .

فهذا التذييل يحمل أسباب التشريف السابق ، وهو فى ذاته تشريف جديد ، فى كل جملة من الجمل الثلاث .. وحسبك أن يسجل الله له فضيلـة الصبر بقوله : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً ﴾ فوصل اسمه باسمه ، ووصفه بالصبر فأظهر مكانه فى القوة والعزيمة .

ثم قال : ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ ﴾ وليس هناك أشرف مـن وصف الإنسان بالعبودية لله تعالى ، فكيف بمن قيل فيه : نعم العبد ؟ ! ثم قال : ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ . والأواب هو المبالغ فى أوبته ورجوعه إلى الله تعالى . وقد أشرك الله معه فى هذا داوود وسليمان عليهما السلام .

* * *

● **يعقوب :**

وقبل أيـوب عرض القرآن لنبى آخر من أهل الصبر علـى البلاء ، هو نبى الله يعقوب ، الذى وصفه الله ـ مع أبويه إبراهيم وإسحاق ـ بأنـه من عباده : ﴿ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ ﴾ (١) (أى القوة فى ديـن الله والبصر بدينه) .

لقد امتُحن بفراق أحب أبنائه إليـه : يوسف ، ومن بعده شقيقه الأصغر ، الذى قيل إن اسمه « بنيامين » .

ولم يكن صبر يعقوب على يوسف بالأمر الهين أو الخطب اليسير ..

(أ) إذ لم يكن يوسف ابناً عادياً بالنسبة إلى أبيه .

إنه الصغير الذى ينال عادة من قلب أبيه ما لا ينال الكبير .

وإنه اليتيم الذى منحه أبوه من عاطفتـه ما يعوِّضه ما فقده من حب الأم .

وإنه الجميل الذى ضُربت بحسنه الأمثال ، ومن طبيعة الجمال أن يُحَب .

وإنه النابه الذى تبدو عليه مخايل للنجابة منذ نعومة أظفاره . وتوسم أبوه من رؤياه التى قصَّها عليه أنه سيكون له شأن أى شأن .

كل هذا جعل الأب يزداد تعلقاً بابنه ، فلا عجب أن يكون الابتلاء بفراقه فى هذه السن من أمَرِّ ما يذوقه الإنسان من شدائد الحياة .

---

(١) سورة ص : ٤٥ .

(ب) ولم يكن فراق يوسف كأى فراق آخر بين حبيبين يعرف كلاهما أين يقيم صاحبه ، ويرجو أن ينتهى الفراق يوماً بلقاء قريب ، وإنما كان فراقاً بعد مؤامرة ادُعى فيها موت الصغير مقتولاً ، وانتهى إلى انقطاع كلى بين الابن وأبيه . حيث لا يعرف للابن مقر ولا مصير .

(جـ) ولم تكن هذه المؤامرة أو هذا الكيد من غرباء موتورين ، أو أعداء متربصين ، فقد يهون الكيد على النفس إذا جاء من عدو ، وإنما كان الكيد من إخوة لأخيهم ، وكان الكذب من أبناء على أبيهم ، وقد قيل : إن طعنة العدو تجرح الجسم ، أما طعنة الصديق فتجرح صميم القلب . فكيف بطعنة الأخ لأخيه ، والابن لأبيه ؟ !

ومع هذا تجمَّل يعقوب بالصبر أولاً ، وبالصبر آخراً ، وقال بعد فراق الولد الأول : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ (١).

وقال بعد فراق الثانى : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢) فهو ليس صبر اليائس القنوط . إنما هو صبر الآمل الراجى فى فضل الله ، الواثق بأن بعد العسر يسراً ، وبعد الفرقة اجتماعاً : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ .

ومع وعد يعقوب بالصبر الجميل لم يلبث أن هاج فراق ولده الثانى ذكرى ولده الأول ـ والأسى يبعث الأسى ـ فثار به الشوق والحنين والحزن ، فتولى عن أبنائه وقال : ﴿ يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ۞ قَالُوا تَاللَّه تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ۞ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّى وَحُزْنِى إِلى اللَّهِ ، وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٣) .

ومن رحمة الله أنه قدَّر للبشرية طبيعتها وضعفها ، فلم يَلُمْ يعقوب على ما أبداه من أسف على يوسف ، ومن حزن ابيضت منه عيناه ، ولم ينزله بذلك عن درجة ﴿ أُولِى الأَيْدِى وَالأَبْصَارِ ﴾ الذين هم عند الله المصطفون الأخيار » .

---

(١) يوسف : ١٨ . (٢) يوسف : ٨٣ . (٣) يوسف : ٨٤ ـ ٨٦ .

ومن هنا قال علماؤنا : ولا يُخرج العبد من الصبر كراهة النفس ، ولا وجدان المرارة والألم ، بل يكون مع ذلك صابراً ، لأن هذا وصف البشرية لما ينافى طبعها .

ولهذا وجدنا النبى ﷺ يقول عند موت ابنه إبراهيم : « إن العين لتدمع ، وإن القلب ليحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون » ، ودمعت عيناه حين رأى بنت بنته تحتضر ، فَرَّق لها وبكى . فلما سئل فى ذلك قال : « إن هذه رحمة ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء » !

فلا غرابة فى حزن يعقوب على يوسف .

ولما لاموا يعقوب فى استمـــراره على ذكر يوسف رغم مضى السنوات الطوال ، على فقده ، وتأثير ذلك على صحته : قال : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

وهنا نعلم أن الصبر الجميل الذى وعد به يعقوب ـ والنبى إذا وعـــد لم يخلف ـ لا ينافى الشكوى إلى الله سبحانه وتعالى : إنما ينافى الشكوى من الله تعالى ، بإظهار الجزع ، والتبرم والسخط على القضاء ، والدعاء بدعوى الجاهلية ، ونحو ذلك مما يقوله أو يفعله الجاهلون بالله العظيم .

ومثل يعقوب هنا أيـــوب ـ عليهما السلام ـ فقد شكا أيوب إلى ربه ما به من ضر، حين ناداه : ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٢) ، ومع ذلك أثنى الله عليه فى كتاب الخلود بقوله : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ، نِعْمَ الْعَبْدُ ﴾ (٣) .

* * *

● **يوسف :**

ومن النماذج القرآنية المرموقة فى عالم الصبر والصابرين يوسف بن يعقوب عليهما السلام .

فـــقد كـــانت حياته سلسلة متلاحقة من البلاء ، دامية الحلقات ، فلا يفرغ من محنة إلا ليدخل فى محنة مثلها أو أشد منها .

---

(١) يوسف : ٨٦ (٢) الأنبياء : ٨٣ . (٣) سورة ص : ٤٤.

فرغ من محنة إخوته وكيدهم له ، ليدخل فى محنة امرأة العزيز وكيدها العظيم ، ويفرغ من كيد امرأة العزيز ، ليواجه محنة السجن ، ويلبث فيه بضع سنين ، بـــلا جرم جناه ، أو سبب قدمته يداه .

ويفرغ من هذه ليلقى محنة السرَّاء والعافية ، فيبتلى بالمنصب والوزارة ، ويتولى مسئولية الزراعة والمالية والتموين فى زمن أزمة طاحنة ، كادت تودى بمصر وما حولها من البلدان .

وهو إلى جوار هذه المحن كلها يعانى محنة الغُربة ، والبُعد عن الأهل والوطن والعشيرة كريه ، وخاصة مع الوحدة ، وطول الزمن ، وانقطاع الأخبار .

محن عديدة متوالية ، ولكنها لم تُلِنْ له قناة ، ولم تُحْنِ له ظهراً ، ولم تَفلح فى زحزحته عن التمسك بالصبر .

ولا عجب أن مكَّن الله له فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، وجعله على خزائنها سيداً متصرفاً ، جزاء صبره وتقواه .

ولقد سُئل الإمام الشافعى يوماً : أيهما أفضل للمؤمن : أن يُبتلى أم أن يُمَكَّن ؟

فقال : وهل يكون تمكين إلا بعد ابتلاء ؟ ! إن اللهّ ابتـــلى يوسف ثم مَكَّنَ له ، فقال : ﴿ وكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ، نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ، وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) .

والحق أن مفتاح قصة يوسف ونجاحه فى حياته رغم ما اعترض من عقبات ومعوقات . تقصم فيها ظهور وتندق أعناق ـ إنما هو فى هذا التعقيب الموجز الذى حكاه القرآن على لسان يوسف نفسه ، بعد أن كشف لإخوته اللثام عن شخصيته : ﴿ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي ، قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا ، إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢) .

---

(١) يوسف : ٥٦ . (٢) يوسف : ٩٠ .

إنها التقوى والصبر إذن ، ولا شئ غيرهما ، هما اللذان ارتفعا بيوسف إلى أرفع المقامات . والتقوى معنى جامــــع لكل خير ، والصبر معنى داخل فى كل بر ، فإذا اجتمعا لإنسان كان من المحسنين ، والله لا يضيع أجـــر المحسنين .

إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، النبى ابن النبى ابن النبى ابن النبى ، لم يغن عنه كـــرم أصلـــه ولا عراقته فى النبوة ، إنما أغناه ونفعه التقوى والصبر .

وأى صبر ؟ إنه صبر أرفع درجة من صبر أبيه يعقوب من قبل ، وصبر أيوب من بعد .

ولا سيما صبره عن الاستجابة إلى امرأة العزيز ، برغم أن كل الظروف من حوله تيسر له طريق الإغراء ، وتدفع إليه دفعاً . ولكنه رفض بشمم ، واستعلى بإيمان ، وقال لها وقد خرجت بالتصريح عن التلميح ، بعد أن هيأت الأسباب ، وغلقت الأبواب : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ، إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاى ، إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١) .

ومرة أخرى تهدده أمام مجموعة من نساء القصور ، وتقول لهن فى حنق وغيظ : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدْتُّهُ عَنْ نَفْسِه فَاسْتَعْصَمَ ، وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ !! (٢) .

فماذا كان موقف يوسف إزاء هذا الإغراء المهدد ، والتهديد المغرى ؟ !

لقد وجد نفسه مخيراً بين محنتين : محنة فى دينه : أن يزنى ويكون من الفاسقين .. ومحنة فى دنياه : أن يسجن ويكون من الصاغرين .

فاختار الثانية على الأولى ، وضحى بدنياه من أجل دينه ، وبحريته من أجل عقيدته ، وقال قولته المعروفة ينـــاجى بها ربه : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ ، وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٣) .

لقد كان صبر يوسف أرقى من صبر أبيه يعقوب على ما بلى بـــه من فراقه ،

---

(١) يوسف : ٢٣ .

(٢) يوسف : ٣٢ .

(٣) يوسف : ٣٣ .

وأرقى من صبر أيوب على ما بُلِيَ به من ضُرٍّ جسده وفراق أهله ، لأن هذا صبر اضطراری لا حيلة فيه ، على حين صبر يوسف صبر اختیاری .

وفى هذا المعنى ينقل المحقق ابن القيم عن شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية قوله : « كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها ، أكمل من صبره على إلقاء إخوته له فى الجب ، وبيعه ، وتفريقهم بينه وبين أبيه ، فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره ، لا كسب له فيها ، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر .

وأما صبره عن المعصية ، فصبر اختيار ورضاه، ومحاربة للنفس ، ولاسيما مع الأسباب التى تقوى معها دواعى الموافقة .

(ا) فإنه كان شاباً ، وداعية الشباب إليها قوية .

(ب) وعزباً ، ليس معه ما يعوضه ويرد شهوته .

(جـ) وغريباً ، والغريب لا يستحى فى بلد غربته مما يستحى منــــــه من بين أصحابه ومعارفه وأهله .

(د) ومملوكاً .. والمملوك أيضاً ليس وازعه كوازع الحر .

(هـ) والمرأة جميلة وذات منصب ، وهى سيدته ، وقد غاب الرقيب ، وهى الداعية له إلى نفسها ، والحريصة على ذلك أشد الحرص .

(و) ومع ذلك توعدته ـ إن لم يفعل ـ بالسجن والصَغار .

ومع هذه الدواعى كلها صبر اختياراً وإيثاراً لما عند الله .

وأين هذا من صبره فى الجب على ما ليس من كسبه » (١) ؟ ! أ هـ . وهو كلام جيد ، ومنطق قوى لا يحتاج إلى تعليق وتأييد .

ومما ينبغى أن يُذكر من صبر يوسف الصديق عليه السلام : موقفه عندما جاء الأمر الملكى بالإفراج عنه ، واستدعائه لمقابلة الملك بشخصه . فلم يطر لبه لهذا النبأ ، ولم يفقد ثباته ، رغم مرور السنين الطوال عليه وهو يعانى ظلم السجن

---

(١) مدارج السالكين .

وظلامه ، بل طلب - قبل كل شئ - التحقيق فيما نسب إليه زوراً وبهتاناً ، لتظهر للناس براءة ساحته ، ونصاعة صفحته ، وهذا ما حدث بالفعل ، كما تحكيه لنا آيات قصته من القرآن المجيد :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ ، فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ، إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ * قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ، قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ، قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (١) .

وهكذا لم يبرح سجنه حتى ثبتت براءته ، وعادت إليه كرامته . وازداد الملك إعجاباً به ، وتقديراً له . وكانت النتيجة ما قصه القرآن : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾ (٢)

فقبل التحقيق قال : ﴿ ائْتُونِى بِهِ ﴾ فحسب . أما الآن فهو يقول :﴿ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾ . مما يدل على زيادة اهتمام وتكريم . ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ (٣) .

* * *

● **صبر الذبيح إسماعيل :**

وهذا نموذج رفيع من نماذج الصبر ، لأنه يمثل الصبر على طاعة الله تعالى فيما أمر مهما يكن وراءه من مخاطر وتضحيات .

هذا النموذج يتمثل فى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

فقد رأى الخليل إبراهيم صلوات الله عليه فى المنام أنه يذبح ولده إسماعيل - ورؤيا الأنبياء وحى - ففهم الإشارة ، وعرف المراد ، فجاء بابنه المطلوب وعرض عليه الأمر قائلاً : ﴿ يَا بُنَىَّ إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ ؟ ! (٤) .

عرض فى غاية من الإيجاز والسهولة ، ولكنه يتضمن أمراً فى غاية الخطر وهو بذل الحياة والروح طاعة لله .

---

(١) يوسف : ٥٠ - ٥١ .
(٢) يوسف : ٥٤ .
(٣) يوسف : ٥٤ .
(٤) الصافات : ١٠٢ .

ترى ماذا كان موقف الفتى وقد طلب منه تقديم عنقه للسكين ، بعد أن اشتد ساعده وصلب عوده ، ونضر شبابه ؟ !

لقد حسم الموقف بجملتين قالهما لأبيه ، خلدتاه فى سجل الأنبياء الصابرين وجعلتا منه قدوة للمؤمنين الصالحين : ﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ، سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١)

يا أبت افعل ما تؤمر ، أى لا تأخذ رأيى ، ولا تنتظر مشورتى ، بل نفذ ما عندك من أمر الله دون هوادة ولا إبطاء. ولهذا قال : ﴿ افعَلْ مَا تُؤمَرُ ﴾ ولم يقل « افعل بى ما تؤمر » فناء عن نفسه ، ونسياناً لذاته ، كأن الأمر لا يتعلق برقبته وإنهاء حياته .

ثم يقول : ﴿ سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٢) فهو لا يدعى بطولة ولا شجاعة ولا يتطاول بقدرته على التحمل ، بل يكل الأمر إلى الله ، ويستند فى صبره إلى إذنه ومشيئته ، وإنه بهذه المشيئة المعينة والموفقة ، سيدخل فى زمرة الصابرين .

وقد كان . وصدق العمل القول ، وأسلم الوالد ولده ، وأسلم الولد عنقه ، وتلّه أبوه للجبين ، وتهيأ للذبح بالسكين . وهنا كان الابتلاء قد بلغ غايته ، وحقق ثمرته . لقد نجح الوالد والولد كلاهما فى الامتحان . ونفذا ما أمر الله به دون تردد أو ارتياب . فلا غرو أن جاءت البشرى من السماء : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ۞ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ۞ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ ۞ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ (٣) .

وبهذا دخل إسماعيل ديوان الصابرين ، وسجل الله لـــه ذلك فى كتاب

---

(١) الصافات : ١٠٢ .

(٢) يلاحظ أن هذه العبارة أقوى من عبارة موسى عليه السلام : ﴿ سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً ﴾ (الكهف : ٦٩) ، ولعله لهذا صبر إسماعيل هنا ما لم يصبر موسى ـ عليهما السلام ـ هناك .

(٣) الصافات : ١٠٤ ـ ١٠٧ .

الخلـود : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ (١) ، كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ، إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٢) .

لقد كان يوسف الصديق نموذجاً للصبر عن معصية الله تعالى ، وكان إسماعيل نموذجاً للصبر على طاعة الله تعالى ، فأى الصابرين أرفع مكاناً ، وخير مقاماً ؟

هنا نجد شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رضى الله عنه ـ يقول فيما نقله ابن القيم عنه : « الصبر على أداء الطاعات ، أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل ، فإن مصلحة فعل الطاعة أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية ومفسدة عدم الطاعة أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية ».

قال ابن القيم :« وله ـ رحمه الله ـ فى ذلك مصنف قرره فيه بنحو من عشرين وجهاً ، ليس هذا موضع ذكرها » (٣) .

* * *

● صبر أولى العزم من الرسل :

وهذه نماذج أخرى للصبر ، أحسب أنها ، فى نوعها ، أعلى من كل النماذج السابقة ، لأنها تمثل الصبر على مشاق الدعوة إلى الله . وما تكلفه أصحابها من تضحيات وأخطار . وهو صبر على تكميل الغير ، وما قبله صبر على تكميل النفس .

إنه صبر أولى العزم من الرسل ، الذين أمر الله خاتم رسله ، وصفوة خلقه ، ورحمته إلى العالمين ، محمد بن عبد الله أن يتخذ منهم أسوة فى صبرهم ، حين قال : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (٤) .

وقد اشتهر أن أولى العزم من الرسل هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى

---

(١) قرن القرآن بين هؤلاء الثلاثة من الرسل فى هذه الآية من سورة الأنبياء ووصفهم بالصبر ، ولكن لم يعرف ما صبر عليه إدريس وذو الكفل خاصة .

(٢) الأنبياء : ٨٥ و ٨٦ .

(٣) مدارج السالكين جـ ٢ ص ١٥٧ .

(٤) الأحقاف : ٣٥

بالإضافة إلى محمد ﷺ(١) ، وهم الذين خصهم الله بالذكر فى سورة الأحزاب بقوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ (٢) .

كما ذكر فى سورة الشورى فى قوله : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ، أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (٣) .

وهــؤلاء الأربعة لقوا من العنت والأذى والبلاء أكثر مما لقيه غيرهم من المرسلين .

فنوح لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، دعاهم سراً وجهاراً ، وليلا ونهاراً ، وتبشيراً وإنذاراً ، فلم يجد إلا وقراً فى الآذان ، وغشـاوة على الأبصار ، وختماً على القلوب ، وقد حكى هو عن نفسه ، وما بذل فى دعوة القوم ، وما قاسى من إعراضهم عنه ، فقال مناجياً ربه ، بما جـاء فـى سـورة نوح : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً ﴾ (٤). فهذا هو موقفهم ، لا يريدون أن يسمعوا له صوتاً ، ولا أن يروا له وجهاً ، فهم يضعون الأصابع فى الآذان لئلا يسمعوه ، ويستغشون ثيابهم لئلا يبصروه . إنه الإصرار العنيد ، والاستكبار الجحود .

---

(١) جرينا على القول المشهور بناء على أن « من » فى قوله : ﴿ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ « تبعيضية » . وبعضهم يضيف إلى المذكورين هنا إسماعيل ويعقوب ويوسف وأيوب الذين ذكرناهم من قبل ، وبعضهم جعل الرسل كلهم أولى عزم ما عدا آدم لقـولـه :﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ (طه : ١١٥) ، ويونس لقوله : ﴿ وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ (القلم : ٤٨).

والقول الثانى : أن « من » فى قوله : ﴿ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ للتبين لا للتبعيض . ولم يبعث الله رسولا إلا ذا عزم . أما آدم فنفى العزم عنه فى قضية جزئية وهى الأكل من الشجرة . وقد يقال إنه لم يكن رسولا . ويونس نهى عن التشبه به فى حالة معينة : ﴿ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ (القلم : ٤٨). لا فى كل الأحوال بدليل : ﴿ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (القلم : ٥٠) .

(٢) الأحزاب : ٧ (٣) الشورى :١٣. (٤) نـوح : ٥ ـ ٧ .

ثم يقول نوح : ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً ﴾(١) . إلى آخر الآيات . فلم يجد من قومه رغم تنوع الوسائل ، وتعدد الأساليب ، إلا الكنود والإعراض ، والسباب والاستهزاء ، بمثل ما جاء فى سورة هود : ﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ (٢) .

وما جاء فى سورة « المؤمنون » من مثل قولهم : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴾(٣) .

وتمضى السنون ، وتمر القرون ، وتتوالى الأجيال ، يذهب فيها الآباء ويعقبهم الأبناء ، ويرحل الأجداد يخلفهم الأحفاد ، فى نحو ثلاثين أو أربعين جيلاً متعاقبة ، ولكن الطينة من الطينة ، والعجينة من العجينة ، مطموسون أبناء مطموسين ، فلا عجب أن دعا نوح ربه دعوته المعروفة بعدما استحكم اليأس ، وفاضت الكأس ، وطفح الكيل : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ (٤) .

وإبراهيم يصبر على دعوة أبيه . وقومه إلى التوحيد ، ويتلطف فى دعوة أبيه غاية التلطف ، ويتحمل خشونته وتهديده : ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ، لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ ، وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً ﴾ (٥) ، فلم يسع إبراهيم إلا أن قال : ﴿ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ، إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ وَأَدْعُوا رَبِّي ، عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً ﴾ (٦) .

---

(١) نوح : ٨ ـ ١٢

(٢) هود : ٢٧

(٣) المؤمنون : ٢٥

(٤) نوح : ٢٦ ـ ٢٧

(٥) مريم : ٤٦

(٦) مريم : ٤٧ ـ ٤٨ .

ويستمر إبراهيم فى دعوته ، ويستمر القوم فى ضلالهم ، إلى أن كانت واقعة تحطيم الآلهة ، وتكسير الأصنام ، وعرف القوم أن إبراهيم هو فاعلها، فاجتمعت كلمتهم على أن ينتقموا لآلهتهم منه ، وأن يحرقوه بالنار ، كما حرق قلوبهم عليها . وأُوقدت النار التى تسابق القوم لإضرامها وتغذيتها بالوقود ، تقرباً للأصنام الكسيرة ، وإرضاءً للآلهة المحطمة ، التى لم تدفع عن نفسها .

وأُخِذَ إبراهيم عليه السلام وأُلقِىَ فى النـــــار ، فما جـزع ولا اضطرب ، ولا التجأ إلى غير الله ، بل كان ذكره الدائم على لسانه : « حسبى الله » .

ولم يكله الله تعالى إلى نفسه ، ولا إلى أعدائه ، ولا إلى أحد من خلقه ، بل تولى سبحانه الدفاع عنه بنفسه ، وسلب النار طبيعة الإحراق ، وقال لها : ﴿ يَا نَارُ كُونِى بَرْداً وَسَلاَماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ (١) وكانت كما أراد الله ، وبطل كيد أعداء الله .

وموسى وُلِدَ يوم وُلِدَ فى جو من الرعب والفزع ، فرضه فرعون على قومه ، وأُوحى إلى أُمه إذا خافت عليه أن تلقيه فى اليم ، وقُدِّرَ له أن يلتقطه عدو الله وعدوه فرعون ، وأن يقع منه قتل خطأ ، فيخرج من مصر خائفاً يترقب ، ليلبث فى الغُربة عشر سنين ، بعيداً عن أهله وقومه . ثم يبعثه الله تعالى ليواجه جبروت فرعون وهامان وجنودهما . فما أن بلغ موسى رسالته لفرعون ، حتى طفق يرغى ويُزبد ويهدد ويتوعد ، ويسخر ويستهزئ . قال : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِى فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢) .

ويـرى فرعون ويسمع ما يدعو إليه موسى من توحيد الله تعالى وإبطال أُلهية مَنْ سواه وما سواه ، وهو يقول للناس : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾(٣) ، ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِى ﴾ (٤) فيطير صوابه ، ويتوعد موسى تارة بالسجن : ﴿ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِى لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ (٥) .

---

(١) الأنبياء : ٦٩ (٢) الشعراء : ١٨ - ١٩ (٣) النازعات : ٢٤
(٤) القصص : ٣٨ (٥) الشعراء : ٢٩

وطوراً بالقتل : قتله هو - عليه السلام - أو قتل الذين آمنوا به واتبعوه : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِى أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ، إِنِّى أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِى الأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ (١)

وقال فرعون وهامان وقارون : ﴿ اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ﴾ (٢) .

ويصبر موسى على هذا كله ، ويتوجه قومه إلى الاستعانة بالله وبالصبر حتى ينصرهم الله ويُهلك عدوهم : ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ، قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِى نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ * قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ، إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ، قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (٣) . على أن موسى عليه السلام ، قد صبر على لون آخر من البلاء ، لعل نبياً آخر لم يُمتحن بمثله ، ذلك هو الصبر على أذى قومه وإعنات أتباعه من بنى إسرائيل ، وكثرة تمردهم ، وطول عنادهم وقسوة قلوبهم ، حتى سُموا فى التوارة « الشعب الصلب الرقبة » .

وقد ذكر القرآن الكريم العديد من التصرفات السيئة لبنى إسرائيل مع نبيهم موسى عليه السلام . منها أنهم بمجرد أن جاوزوا البحر الذى أغرق الله فيه عدوهم : ﴿ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ، قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (٤)

ومنها أنهم حين قال لهم موسى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ قالوا فى مواجهته بكل وقاحة : ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً، قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٥) .

---

(١) غافر : ٢٦ — (٢) غافر : ٢٥

(٣) الأعراف : ١٢٧ - ١٢٩ — (٤) الأعراف : ١٣٨

(٥) البقرة : ٦٧

ومنها أنهم بمجرد ذهاب موسى إلى الطور لمناجاة ربه ، صنع لهم السامرى عجلاًمن الحلى ، فاتخذوه إلهاً وعبدوه ، وفيه يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُم العِجْلَ مِنْ بعْدِه وأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (١) .

ومنها أنهم أمروا بدخول الأرض المقدسة التى كتب الله لهم ، وألاّ يرتَدُّوا على أدبارهم فينقلبوا خاسرين . فلم يستجيبوا لأمر الله على لسان منقذهم ورسولهم ، وبعد أخذ ورد ، وجذب وشد ، كان غاية موقفهم أن قالوا : ﴿ فاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتلاَ إنَّا هَهُنَا قَاعدُونَ ﴾ (٢) فلم يملك موسى إلا أن يُناجي ربه فيقول فى أسى وحزن : ﴿ رَبِّ إنِّى لاَ أَمْلِكُ إلاَّ نَفْسِى وأخِى ، فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ القَوْمِ الفَاسِقِينَ ﴾ (٣) .

ومنها أنهم لما أكرمهم الله فى التيه ، وظلّل عليهم الغَمام ، وأنزل عليهم المَنَّ والسلوى ، طعاماً طيباً سهلاً يأكلونه بلا جهد ولا معاناة فى صحراء قاحلة ، قالوا بكل صفاقة وتبجح : ﴿ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِها وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ، قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَى بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ ؟ (٤).

ومنها الكثير والكثير من مواقف السوء التى يضيق بها صدر الكريم ، وينفد عندها صبر الحليم . ومع هذا لم ينفد صبر موسى عليه صلوات الله وسلامه .

ولا غَرو أن وجدنا رسولنا محمداً ﷺ حين رأى وسمع بعض ما آذاه من قومه يستحضر ما أمره الله به من الاقتداء بأولى العزم فى صبرهم ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (٥) ويتذكر ما عاناه أخوه موسى من قبله من الشعب الغليظ الرقبة ، فيصبر ويحتسب منوهاً بصبر كليم الله موسى عليه السلام .

---

(١) البقرة : ٥١
(٢) المائدة : ٢٤
(٣) المائدة : ٢٥
(٤) البقرة : ٦١
(٥) الأحقاف : ٣٥

روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال : قَسَّمَ رسول الله ﷺ ذات يوم قَسماً فقال رجل من الأنصار (١) : إن هذه القسمة ما أُريد بها وجه الله ! قال : فقلت : يا عدو الله ، أما لأُخبرن رسول الله ﷺ بما قلت ، فذكرت ذلك للنبى ﷺ فاحمر وجهه ثم قال : « رحمة الله على موسى ! لقد أُوذى بأكثر من هذا فصبر »(٢) والحديث فى الصحيحين أيضاً .

والمسيح عيسى ابن مريم بُعِثَ إلى « خراف بنى إسرائيل الضالة » ـ كما قال عن نفسه فى الإنجيل – فواجه ما واجه أخوه موسى من قبل ، تعنَّت هذا الشعب « الصلب الرقبة » ولم يجد من أحبارهم إلا التكذيب والعصيان ، والجمود على الرسوم والشكليات ، دون استعداد للترقى إلى الأفق الروحى الحقيقى ، وقد وعظهم بأبلغ المواعظ ، وضرب لهم أروع الأمثال ، فلم يلق إلا آذاناً صُمّاً ، وقلوباً غُلفاً ، فلم يجد لهم وصفاً أبلغ من أن يخاطبهم بقوله : « يا أبناء الأفاعى » !

لقد رفضوا دعوته ، وقالوا فيه وفى أمه أسخف القول وأكذبه ، وباتوا يكيدون له ، ويمكرون به ، ويتآمرون عليه ، ويُؤلبون عليه حكام الرومان ، بماأُوتوا من جهد وحيلة ودس . وكان ثمرة هذا الكيد أن تقرَّر قتله وصلبه عليه السلام ، لولا أن الله تعالى أحبط مكرهم ونجَّاه من شرهم . وقد سجل ذلك القرآن عليهم ضمن ما سجَّله فى صحيفة آثامهم ، ووثيقة اتهامهم ، فقال : ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ . . . ﴾ (٣)

وهكذا نجد هؤلاء الرسل العظام : شيخ المرسلين نوحاً ، وأبا الأنبياء إبراهيم ، وكليم الله موسى ، وروح الله وكلمته عيسى ، لقوا فى سبيل دعوتهم أشد العنَت وأقسى الأذى ، وهم صابرون على المكروه ، ثابتون على

---

(١) كان من المنافقين كما فى فتح البارى .

(٢) تفسير ابن كثير جـ٣ص٥٢١

(٣) النساء : ١٥٦ ـ ١٥٧

الحق ، لم يجزعوا ، ولم ييأسوا ، ولم يملوا ، حتى حكم الله بينهم وبين أعدائهم بالحق ، وهو خير الحاكمين . . فنجى رسله والذين آمنوا معهم وجعل خصومهم هم الأخسرين .

لقد وضع القرآن أمام الرسول ﷺ تجارب هؤلاء الرسل الكبار مع أقوامهم ، لتكون له زاداً ورصيداً . وهو يحمل دعوة ليست مقصورة على إقليم ولا شعب ولا جيل ، بل هى للناس كافة ، وإلى أن تقوم الساعة .

ومن ثَمَّ أمر الرسول ﷺ أن يصبر كما صبروا ، ليظفر كما ظفروا ، وهذا ما وعاه النبى ﷺ ، ووضعه نُصب عينيه ، تحقيقاً لأمر ربه .

روى ابن أبى حاتم فى تفسيره عن مسروق عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ حدثها بعد صيام طويل صامه ثم قال : يا عائشة ، إن الدنيا لا تنبغى لمحمد ولا لآل محمد.. يا عائشة ، إن الله لم يرض من أُولى العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهها . والصبر عن محبوبها ثم لم يرض منى إلا أن يكلفنى ما كلفهم ، فقال ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (١) وإنى والله لأصبرن كما صبروا جهدى ، ولاقوة إلا بالله » (٢) .

ولقد صبر رسول الله ﷺ ، كما أمره ربه ، وكان من أُولى العزم ، بل إمامهم ، فهو سيد الصابرين والشاكرين .

* * *

---

(١) الأحقاف : ٣٥

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ١٧٢ ط الحلبى .

الفصل الخامس

مايعين على الصبر في القرآن

ومع مشقة الصبر ، وصعوبته على النفس ، أشار القرآن إلى جملة أمور تعين على الصبر ، وتهوّنه على النفس . منها :

١ ـ المعرفة بطبيعة الحياة الدنيا :

فأقرب ما يُعين الإنسان على الصبر ، وخاصة على النوائب والشدائد ـ أن يصبح تصوره للحياة التى يعيش فيها ، ويعرفها على حقيقتها ، فليست جنة نعيم ، ولا دار خلود ، إنما هى ابتلاء وتكليف ، خُلِقَ الإنسان فيها لُيصقل ويُبتلى ليُعد لحياة الخلود فى الدار الباقية . ومن عرف الحياة على هذا النحو لم يفاجأ بكوارثها ، فالشئ من معدنه لا يُستغرب .

أما من كان من الناس يتصور الحياة طريقاً مفروشاً بالأزهار والرياحين ، فإنه إذا نزل به شئ مهما قل وضؤل ، كان أشد ما يكون على نفسه ، لأنه لم يكن يتوقع شيئاً منه .

والقرآن الكريم يشير إلى أن حياة الإنسان محفوفة بالمتاعب والمشقة ، حين يقول : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِى كَبَدٍ ﴾ (١) .

كما يشير إلى طبيعة الحياة ودوام تغيرها ، وأنها لا تلبث على حال ، فيوم لك ويوم عليك : ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (٢)

لقد خلق الله الحياة الدنيا على طبيعة اختلطت فيها اللذائذ بالآلام . والمحاب بالمكاره ، فهيهات أن ترى فيها لذة لا يشوبها ألــم ، أو صحــة لا يكدرها سقم ،أو سروراً لا ينغصه حزن ،أو راحة لا يخالطها تعب ، أو اجتماعاً

---

(١) البلد : ٤ .　　(٢) آل عمران : ١٤٠ .

لا يعقبه افتراق ، أو أماناً لا يلحقه خوف . إن هذا ينافى طبيعة الحياة ، ودور الإنسان فيها . وهذا ما أدركه الحكماء والأدباء والشعراء من قديم ، فنطقت به ألسنتهم وأقلامهم شعراً ونثراً . قيل لعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : صف لنا الدنيا . فقال : ماذا أصف لك من دار أولها بكاء ، وأوسطها عناء ، وآخرها فناء ؟ !

وما أجمل ما قال فى ذلك الشاعر العربى يصف الدنيا :

جُبِلتْ على كدر وأنت تُريدها صفواً من الآلام والأكدار !

ومُكَلِّفُ الأيام ضِدَّ طِباعها متطلب فى الماء جذوة نار !

يقول العلامة ابن القيم فى « زاد المعاد » فى بيان علاج حر المصيبة وحزنها : « ومن علاجه : أن يطفئ نار مصيبته ببرد التأسى بأهل المصائب وليعلم أنه فى كل واد بنو سعد ، ولينظر يمنة فهل يرى إلا محنة ، ثم ليعطف يسرة فهل يرى إلا حسرة ؟ وإنه لو فتش العالم لم ير فيهم إلا مبتلى : إما بفوات محبوب ، أو حصول مكروه . وإن سرور الدنيا أحلام نوم أو كظل زائل . إن أضحكت قليلاً أبكت كثيراً ، وإن سرَّت يوماً أساءت دهراً . وإن متعت قليلاً منعت طويلاً ، وما ملأت داراً حبرة ، إلا ملأتها عبرة ، ولا سرته بيوم سرور ، إلا خبأت له يوم شرور » .

وقال ابن مسعود : « لكل فرحة ترحة ، وما ملئ بيت فرحاً ، إلا مُلئ ترحاً » .

وقال ابن سيرين : « ما كان ضحك قط ، إلا كان من بعده بكاء » .

وقالت هند بنت النُعمان بن المنذر ملك العرب : « لقد رأيتنا ونحن من أعز الناس وأشدهم مُلكاً ، ثم لم تغب الشمس حتى رأيتنا ونحن أقل الناس ! وإنه حق على الله ألا يملأ داراً حبرة إلا ملأها عبرة » .

وسألها رجل أن تُحدِّثه عن أمرها ، فقالت : « أصبحنا ذات صباح وما فى العرب أحد إلا يرجونا ، ثم أمسينا وما فى العرب أحد إلا يرحمنا » !!

وبكت أختها حُرقة بنت النعمان بن المنذر يوماً ، وهى فى عزّهــا ، فقيـل لها : ما يبكيك ؟ لعل أحداً آذاك ! قالـــت :« لا . ولكن رأيت غضارة فى أهلى ، وقلما امتلأت دار سروراً ، إلا امتلأت حزناً ».

قال إسحاق بن طلحة : « دخلت عليها يوماً ، فقلت لها : كيف رأيت عبرات الملوك ؟ فقالت : ما نحن فيه اليوم خير مما كنا فيه الأمس . إنا نجد فى الكتب أنه ليس من أهل بيت يعيشون فى حَبرة ، إلا سيعقبون بعدها عبرة . وإن الدهر لم يظهر بقوم بيوم يحبونه إلا بطن لهم بيوم يكرهونه ، ثم قالت :

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا إذا نحن فيهم سوقة نتنصف !

فأف لدنيا لا يدوم نعيمها تقلّب تارات بنا وتُصرِّف !

* * *

٢ ـ معرفة الإنسان نفسه :

وأعنى بذلك أن يعرف الإنسان أنه مِلكٌ لله تعالى أولاً وآخراً . الله هو الذى خلقه من عدم ، ومنحه الحياة والحس والحركة ، ووهب له السمع والبصر والفؤاد ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة . إذا كان لديه صحة وقوة فهى من الله ، وإن كان له مال فهو من الله . وإن كان عنده ولد فهو من الله . وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾ (١)

فإذا نزل بالمرء نازل سلبه شيئاً مما عنده . فإنما استرد صاحــب الملك بعض ما وهب . ولا ينبغى للمودع أو المستعير أن يسخط على المالك إذا استرد يوماً من الدهر وديعته أوعاريته . وقديماً قال لبيد :

وما المال والأهلون إلا ودائعُ ولا بُدَّ يوماً أن تُرَد الودائعُ

ومن ثَمَّ علّم القرآن الصابرين الذين كتب لهم البشرى والصلوات والهداية والرحمة أن يقولوا إذا أصابتهم مصيبة : ﴿ إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (٢)

يقول ابن القيم (٣) : « وهذه الكلمة ، من أبلغ علاج للمصاب ، وأنفعه لــه

---

(١) النحل : ٥٣ (٢) البقرة : ١٥٦

(٣) زاد المعاد : جـ ٣ ص ٢٦٥ ط . السنة المحمدية .

فى عاجلته وآجلته ، فإنها متضمن أصلين عظيمين ، إذا تحقق العبد بمعرفتهما تسلى عن مصيبته .

أحدهما : أن العبد وأهله وماله مِلكٌ لله عز وجل ، وقد جُعِلَ عند العبد عارية ، فإذا أخذه منه فهو كالمعير يأخذ قناعه من المستعير .

وأيضاً ، فإنه محفوف بعدمين : عدم قبله ، وعدم بعده ، وملك العبد له متعة معارة فى زمن يسير . وأيضاً فإنه ليس الذى أوجده عن عدمه ، حتى يكون ملكه حقيقة ، ولا هو الذى يحفظه من الآفات بعد وجوده ، ولا يبقى عليه وجوده ، فليس له فيه تأثير ولا ملك حقيقى .

والثانى : أن مصير العبد ومرجعه إلى الله مولاه الحق ، ولابد أن يخلف الدنيا وراء ظهره ، ويجئ ربه فرداً ، كما خلقه أول مرة ، بلا أهل ولا مال ولا عشيرة . ولكن بالحسنات والسيئات ، فإذا كانت هذه بدايته ونهايته ، فكيف يفرح بموجود ، ويأسى على مفقود ؟ ! ففكره فى مبدئه ومعاده من أعظم علاج هذا الداء . ا. هـ .

وأيَّدَ ذلك الحديث النبوى الذى يُعَلِّم المصاب أن يقول أيضاً : « إن لله ما أخذ ، ولله ما أعطى » .

وفى الصحيحين وغيرهما فى قصة أُم سليم مع زوجها أبى طلحة ، حين مات ابن لهما ، وأبو طلحة خارج ، فقامت الأُم إلى الصبى فَغَسَّلته وكَفَنَّتْه وحَنَطَّته (طيبته بالحنوط) وسجت عليه ثوباً ، فلما جاء أبو طلحة قال : كيف الغلام ؟ فقالت : قد هدأت نفسه ، وأرجو أن يكون قد استراح ! (تعنى بالموت) وظن هو أنه استراح بالنوم لمجئ العافية ، ثم تعرَّضت له فأصاب منها ، فلما أراد أن يخرج قالت له : يا أبا طلحة ، أرأيت لو أن قوماً أعاروا أهل بيت عارية ، فطلبوا عاريتهم ، ألهم أن يمنعوهم ؟ قال : لا . إن العارية مُؤداة إلى أهلها . فقالت : إن الله أعارنا فلاناً (وسمت ابنها) ثم أخذه منا . فاسترجع . فصَلَّى مع النبى ﷺ فأخبره بما كان منهما . فقال رسول الله ﷺ :« لعل الله أن يبارك لكما فى ليلتكما » .

فقال رجل من الأنصار : فرأيت لهما (أى من ابنهما عبد الله) تسعة أولاد كلهم قد قرأوا القرآن .

والشاهد فى القصة ما جاء على لسان أم سليم رضى الله عنها أن الأولاد عارية من الله يمنحها لعباده حين يشاء ، ويستردها متى شاء . ولا ريب أن الإيمان بهذه الحقيقة يعين على الصبر ، ويهون على المصاب ألم المصيبة ، مادام صاحب الوديعة أو العارية قد استرجعها . إنه صاحب الفضل حين يمنح ، وصاحب الحق حين يسترد ما منح ، وخصوصاً أنه فى هذه وتلك لا يصدر إلا عن حكمة .

* * *

٣ ـ اليقين بحسن الجزاء عند الله :

فإن مما يحثُّ الإنسان على عمل ما ، ويُثَبِّته عليه ، ويُزيده رغبة فيه ، وحرصاً عليه ، أن يطمئن إلى أنه مجزىٌّ عليه جزاء مرضياً ، ومن هنا وضعت الدول والمؤسسات المكافآت التشجيعية والجوائز التقديرية للمحسنين والمتفوقين .

والقرآن يشير إلى أن الصابرين ينتظرهم أحسن الجزاء من الله تعالى ، وذلك حين يرجعون إليه ، ويقفون بين يديه ،، فيعوِّضهم عن صبرهم أكرم العوض ، ويمنحهم أعظم الأجر ، وأجزل المثوبة ، حتى ورد : « إن أهل العافية يتمنون يوم القيامة لو أن أجسامهم كانت تُقرض بالمقاريض فى الدنيا ، لما يرون من عظم ثواب الله لأهل البلاء » .

ولا نجد فى القرآن شيئاً ضخم جزاؤه ، وعظم أجره ، مثل الصبر .

فهو يتحدث عن هذا الأجر بأسلوب المدح والتفخيم فيقول :﴿ نِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوكلُونَ ﴾ (١) .

وهو يبين أن الصابرين إنما يُجزون أجرهم بأحسن ما عملوا ، فضلاً من الله ونعمه﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ، وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

وأخيراً يُصَرِح بأن أجر الصابرين غير معدود بعـد ، ولا محـدود بحَد ، ولا محسوب بمقـدار . وذلك فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ

---

(١) العنكبوت : ٥٨ ـ ٥٩ . (٢) النحل : ٩٦ .

بغَيْرِ حسَابٍ ﴾ (١) قال بعض المفسرين : يُغْرف لهم غرفاً ، ويُصب عليهم صباً . هذا مع قوله تعالى فى جزاء المخلصين من عباده﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴾ (٢) .

وإذا كان هذا هو جزاء الصابرين عند الله ، فالواجب على المؤمن إذا أصابته مصيبة أن يتذكر هذه الحقيقة الكبيرة : أن مصيره إلى الله مهما تطل هذه الحياة ، وأن أجره عنده لن يضيع . وهذا ما وصف به القرآن الصابرين حين قال : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِين * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (٣) .. فإذا قالوا : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ ﴾ تذكروا بها حقيقة أنفسهم ، وأنهم مِلْكٌ لله ، وإذا قالوا : ﴿ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ تذكروا حسن الجزاء عند ربهم ، فدفعهم ذلك إلى حُسن الصبر والسلوان .

وقد جاء عن عمر قوله :« ما أُصبت ببلاء إلا كان لله عليَّ فيه أربع نعم : أنه لم يكن فى دينى ، وأنه لم يكن أكبر منه وأني لم أحرم الرضا به ، وأني أرجو ثواب الله عليه ».

فكان رجاء ثواب الله على البلاء ـ فى نظر عمر ـ أحد الأسباب المُلَطِّفة له ، إلى حد نقله من دائرة المصائب التى يصبر عليها ، إلى دائرة النِعَم التى يشكر عليها .

وحدَّثوا : أن امرأة فتح الموصلى ـ وكانت من الصالحات ـ عثرت فانقطع ظُفرها ، وفى هذا من الألم ما فيه . ولكنها حمدت الله وضحكت ، فقيل لها : أما تجدين الوجع ؟ فقالت : « إن لذة ثوابه أزالت عن قلبى مرارة وجعه »!

إن يقين الإنسان بحسن الجزاء ، وعِظَم الأجر عند الله ، على البلية يُخفف مرارتها على النفس ، ويُهَوِّن من شدة وقعها على القلب ، وكلما قسوى اليقين ، ضعف الإحساس بألم المصيبة ، حتى تنتقل لدى النفس من المكاره إلى المحاب ، كما رأينا فيما جاء عن عمر .

---

(١) الزمر : ١٠ .
(٢) الصافات : ٤١ .
(٣) البقرة : ١٥٥ ـ ١٥٦ .

ومن دلائل ذلك ما جاء فى الحديث من أدعية النبى صلى اللّه عليه وسلم أنه كان يقول : « اللّهم اقسم لنا من خشيتك ما تَحـول به بيننا وبين معصيتك ، ومن طاعتك ما تُبَـلِّغنا به جنتك ، ومن اليقـين ما تُهَوِّن بـه علينـا مصائب الدنيـا » (١) .

وقال أبو طالب المكى : « وأصل قلة الصبر ضعف اليقين بحسن جزاء من صبرت له . لأنه لو قوى يقينه ، كان الآجل من الوعد عاجلاً ، إذا كان الواعد صادقاً ، فيحسن صبـــره ، لقـوة الثقة بالعطـاء . ولا يصبر العبـد إلا بأحد معنيين : مشاهدة العِوَض ، وهذا مقام أصحاب اليمين ، والنظر إلى الْمُعَوِّض ، وهو مقام المقربين » (٢) . ا هـ .

وفى قوله ﴿ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ نظر إلى العوض والْمُعَوِّض جميعاً .

* * *

٤ ـ اليقين بالفرج :

مما يُعين الإنسان على الصبر : اليقين بأن نصر اللّه قريب ، وأن فرجـه آت لا ريب فيه ، وأن بعد الضيق سِعة ، وأن بعدالعسر يُسراً ، وأن ما وعد اللّه به المؤمنين من نصـر ، وما وعد به المبتلين من العوض والإخلاف ، لابـــد أن يتحقق .

هذا اليقين جدير بأن يُبَدِّد ظُلمة القلق مِنَ النفس ، ويطرد شبح اليأس من القلب ، وأن يُضيئ الصدر بالأمل فى الظَفر ، والثقة بالغد ، وهذا كسب نفسى كبير ، فإن الأمل قوة مُحَرِّكة ، وشحنة دافعة إلى الأمام ، أما اليأس فهو داء وبيل ، بل قتّال .

إن الذى أعان يعقوب على الصبر ، أمله فى اللّه ، وثقته بالمستقبل ، وإن اللّه لن يضيع صبره وعمله . ولهذا قال بعد أخذ ولده الثانى واحتجازه فى مصر:

---

(١) رواه الترمزي وحسَّنه ، والنسائى فى « اليوم والليلة » ، والحاكم ، وقال : صحيح على شرط البخارى من حديث ابن عمر . كما فى تخريج الحافظ العراقى للإحياء .

(٢) قـــوت القلوب .

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً ﴾ (١) وقـال لبنيـه : ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٢) .

ولا عجب أن تكـرر فى القرآن الأمر بالصبر مقروناً بالتذكير بأن وعد اللهّ حق ، أى لا يتخلف أبداً ، لأن الذى يُخلف وعده ، إما عاجز أو كاذب ، وتعالى الله عن ذلك ﴿ وَعْدَ اللَّهِ ، لاَ يُخلفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴾ (٣) .

ففى سورة الروم : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ ﴾ (٤) ، وفى سورة غافر : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، واسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ (٥) .

وفيها أيضاً : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَـقٌّ ﴾ .

ووعد الله الحق للصابرين يتمثل فى جملة أشياء :

(أ) الوعـد بالسعة بعد الضيق ، وبالعافية بعد البلاء ، وبالرخاء بعد الشدة ، وباليسر بعد العُسر .

وفى هذا يقول القرآن : ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً ﴾ (٦) ، بل يقول فى سورة الشرح : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ﴾ (٧) فلم يجعل اليُسر بعد العُسر أو عقبه بل معه ، وذلك لِيُنَبِّه على أمرين :

الأول : قُرب تحقق اليُسر بعد العُسر حتى كأنه معه ، ومتصل به ، وفى هذا قال بعض السلف : « لو دخل العُسر جحراً لتبعه اليُسر » .

الثانى : أن مع العُسر بالفعل يُسـراً ، لا ريـب فيـه ، قد يكون ظاهـراً ملموساً وقـد يكون خفياً مكنوناً . وذلك ما نسميه « اللطف » ففى كل قَدَرٍ لطف ، وفى كل بلاء نعمة ، وفيه يقول ابن عطاء الله السكندرى :

---

(١) يوسف : ٨٣ .

(٢) يوسف : ٨٧ .

(٣) الزمر : ٢٠ .

(٤) الروم : ٦٠ .

(٥) غافر : ٥٥ ، ٧٧

(٦) الطلاق : ٧ .

(٧) الشرح : ٥ ـ ٦ .

من ظن انفكاك لطفه عن قدره ، فذلك لقصور نظره : ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ هُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ ﴾ (١) .

(ب) وعده بحسن العاقبة لأهل الصبر والتقوى ، مهما ازدحمت طريقهم بالأشواك ، وضُرِّجت بالدماء ، فالعبرة بالعواقب ، والمدار على الخواتيم .

وفى هذا يحكى القرآن على لسان موسى ناصحاً قومه ، بعد أن هددهم فرعون بما هددهم من التقتيل والتعذيب والتنكيل : ﴿ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ، إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) .

ويخاطب الله تعالى خاتم رسله محمد ﷺ بعد أن قَصَّ عليه قصة نوح عليه السلام مع قومه وابنه وما انتهى إليه أمرهم ، ثم يعقب على القصة بقوله : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ، مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا ، فَاصْبِرْ إِنَّ العَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣) .

وقصص الرسل مع أقوامهم التى حفل بها القرآن ، تؤكد هذا القانون الإلهى : أن العاقبة لأهل الصبر والتقوى .

قد تكون الأيام دولاً ، والحرب سِجالاً ، ولكن النتيجة فى صالح أهل الإيمان .

بل قد تشتد المحن ، وتتفاقم الفتن ، وتُقبل الشدائد كأمواج البحر ، وتأخذ بخناق المؤمنين ، وتزيغ الأبصار ، وتبلغ القلوب الحناجر ، وتظن الناس بالله الظنون (٤) ، ويُبتلى المؤمنون ويزلزلون زلزالا شديداً ، وفى هذه اللحظات يكون نصر الله أقرب ما يكون على سنة الله فى الطبيعة ، حيث نرى الرعود القاصفة ، والبروق الخاطفة ، بشير الغيث والرحمة ، ونرى أحلك سويعات الليل ظُلمة وسواداً هى التى تسبق بزوغ الفجر ، ولهذا قيل :

اشتدى أزمة تنفرجى ... قد آذن ليلك بالبلج

---

(١) يوسف : ١٠٠ .
(٢) الأعراف : ١٢٨ .
(٣) هود : ٤٩ .
(٤) كما حدث للمسلمين فى غزوة الأحزاب ووصفه الله فى كتابه فى سورة الأحزاب .

وقال الآخر :

ولرُبَّ نازلـــة يضيق لها الفتى ذرعاً ، وعند الله منها الْمَخرَجُ
ضاقت ، فلما استحكمت حلقاتها فُـرجت ، وكنت أظنها لا تُفْرَجُ

والقرآن يتحدث عن هذه السنة الإلهية مع رسل الله فيقول : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (١) .

وقد يخيل لبعض الناس حين يرون الظالمين والطغاة يرفلون فى حُلل العافية أن قَدَرَ الله قد غفـــل عنهم ، وحاشى لله ، فإنه يُمهل ولا يُهمل . وفى الحـديث الصحيح : « إن الله لَيملى للظالـــم حتى إذا أخـــذه لم يُفلتـــه » ثـم تـلا : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (٢) .

(جـ) الوعد بحسن العـــوض عما فات ، والإخـــلاف عما فقـد ، فإن الله لا يضيع عنده أجر عامل ، ولا مثوبة محسن ، كيف وقد وعد وعداً مؤكداً أنه لا يضيع أجر المحسنين . وهذا يشمل الدنيا والآخرة جميعاً . فهو فى الدنيا يُعَوِّضهم ويُخلف عليهم خيراً مما حُرِموا ، ويُمَكِّن لهم بعد أن غُلِبوا ، وهو فى الآخرة يُؤتيهم أجورهم بغير حساب .

يقول تعالى واعداً المهاجرين فى سبيله بحسن العوض عما حُرموا من الوطن والعشيرة : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (٣) .

وقد عرفنا فى قصة نبى الله أيوب عليه السلام ، كيف صبر على ما أصابه من ضُـرٍّ فى نفسه وأهله ، فانتهى به الصبر إلى أجمل العواقب ، وكشف الله عنه ضُرَّه . ووهب له أهله ومثلهم معهم ، رحمة من عنده ، وذكرى للعابدين ، وعبرة لأولى الألباب .

---

(١) يوسف : ١١٠ (٢) هود : ١٠٢ (٣) النحل : ٤١ ـ ٤٢

وهذا يؤكد لنا أن الصبر المر ، لا يُجتنى من ورائه إلا أحلى الثمرات فى الدنيا ، قبل الآخرة .

ومن هنا جاء خطاب الله تعالى لرسوله فى سورة هود إذ يقول : ﴿ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) فثمرة الصبر لا تضيع فى الأولى ولا الآخرة .

ويتحدث القرآن على لسان يوسف حين كشف لإخوته عن نفسه فقالوا : ﴿ أَئِنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ ، قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِى ، قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ، إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢)

ويُعَقِّب القرآن على موقف يوسف بعد أن استدعاه الملك واستخلصه لنفسه ، وقال له فى اعتزاز وتكريم : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ (٣) يُعَقِّب القرآن فيقول : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأَرْضِ ، يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ، نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ، وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (٤)

وقد نبَّهت الآية الأخيرة إلى أن قوله تعالى : ﴿ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ إنما يُراد به ـ أولاً وبالذات ـ أجر الدنيا ، وجزاء العاجلة ، أما أجر الآخرة وثوابها فقد أفادته الآية الثانية : ﴿ وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ .. ﴾ .

ومن الوقائع الثابتة التى تدل على أن الله يُعَوِّض الصابرين خيراً مما فقدوا ما رواه مسلم فى صحيحه عن أم سلمة ـ أم المؤمنين ـ رضى الله عنها ، قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول :« ما من عبد تُصيبه مصيبة فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم ائجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيراً منها . إلاَّ آجره الله فى مصيبته ، وأخلف له خيراً منها » قالت : فلما توفى أبو سلمة ، قلت كما أمرنى رسول الله ﷺ فأخلف الله لى خيراً منه : رسول الله ﷺ .

* * *

---

(١) هود : ١١٥

(٢) يوسف : ٩٠.

(٣) يوسف : ٥٤

(٤) يوسف : ٥٦ ـ ٥٧

٥ ـ الاستعانة بالله :

ومما يُعين المبتلى على الصبر أن يستعين بالله تعالى ، ويلجأ إلى حِماه ، فيشعر بمعيته سبحانه ، وأنه فى حمايته ورعايته . ومن كان فى حِمى ربه فلن يُضام .

وفى هذا يقول تعالى فى خطاب المؤمنين : ﴿ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١) .

وفى خطاب رسوله : ﴿ واصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (٢) .

ومن كان بمعية الله مصحوباً ، وكان بعين الله ملحوظاً ، فهو أهل لأن يتحمل المتاعب ويصبر على المكاره .

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم ، فالمخاوف كلهن أمان !

واصطد بها العنقاء ، فهى حبائل واقتد بها الجوزاء ، فهى عِنان !

ولما هدد فرعون موسى عليه السلام وقومه ، أن يُقتِّل أبناءهم ، ويستحيى نساءهم ، مستخدماً سيف القهر والجبروت ، قال موسى لقومه : ﴿ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَ اصْبِرُوا ﴾ (٣).

ولعل حاجة الصابرين إلى الاستعانة بالله تعالى والتوكل عليه هى بعض أسرار اقتران الصبر بالتوكل على الله فى آيات كثيرة مَرَّ بنا بعضها . مثل قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (٤) ، وقوله على ألسنة الرسل : ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (٥) .

* * *

٦ ـ الاقتداء بأهل الصبر والعزائم :

ومما يُعين على الصبر : التأمل فى سِيَر الصابرين ، وما لاقوه من صنوف البلاء ، وألوان الشدائد ، وبخاصة أصحاب الدعوات ، وحملة الرسالات ، من

---

(١) الأنفال : ٤٦ (٢) الطور : ٤٨

(٣) الأعراف : ١٢٨ (٤) النحل : ٤٢

(٥) إبراهيم : ١٢

أنبياء الله ورسله ، المصطفين الأخيار ، الذين جعل الله من حياتهم وجهادهم دروساً بليغة لمن بعدهم ، ليتخذوا منها أسوة : ويتعزُّوا بها عما يصيبهم من متاعب الحياة وأذى الناس .

ومن هنا حرص القرآن ـ المكى خاصة ـ على ذكر قصص الأنبياء بل تكرار الكثير منها فى العديد من سوره ، تسلية للنبى ﷺ والمؤمنين معه ، وتثبيتاً لقلبه فى مواجهة أعداء دعوته ، وما أكثرهم وأعتاهم .

وفى هـذا المعنى نقـرأ فى خـواتيـم سورة هود ، وقد قصَّ الله عليه فيها قصص عـدد من إخـوانه المـرسلين : ﴿ وَكُلاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاء الـرُّسُـلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

وفى سورة الأنعام يُبَيِّن الله تعالى لرسوله أن ما يلقاه من تكذيب وإيذاء ليس بدعاً مما أصاب الرسل من قبله، يقول : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ، وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٢) .

وفى سورة إبراهيم يحكى القرآن على لسان رسل الله عليهم السلام فى الرد على قومهم :﴿ وَمَا لَنَـا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ، وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَـوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (٣) .

ثم ذكر بعدها بعض ما أصاب الرسل من أهل الكفر والعناد ، فقال : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ، فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ (٤) .

وكم رأينا من رسول دعا إلى الله وتوحيده ، فهدَّده قومه بالنفى من الوطن والإخراج من الأرض أو الرجوع إلى شركهم ووثنيتهم وضلالهم ، نقرأ هذا فى قصة شعيب بعد أن نصح لهم أبلغ النصح ، وخطبهم أروع الخُطب ، وختم خطبته

---

(١) هود : ١٢٠ .

(٢) الأنعام : ٣٤ .

(٣) إبراهيم : ١٢ .

(٤) إبراهيم : ١٣ .

بقوله : ﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (١) .

فلم يكن منهم أمام هذا القول البليغ إلا أن ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ، قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قد افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ، وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ، وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ، رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ (٢) .

ونقرأ فى قصة لوط كيف هُدّ د كذلك بالطرد والإبعاد ، لا لشئ إلا لأنه تنزّه عن قبائحهم ، وتَطَهَّر عن القذارات التى يرتكسون فيها ، وأنكر عليهم الفاحشة التى ابتكروها ، فقالوا فى جراءة وقحة : ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ ، إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ (٣) .

وفى آخر آية من سورة الأحقاف يجئ الخطاب الإلهى للرسول قائلا :﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَهُمْ ﴾ (٤) .

فإذا ضاق صدره يوماً بما يقولون أو يفعلون ، أو أدركه الحزن عليهم ، والضيق مما يمكرون ، وجد فى صبر إخوانه من الرسل قبله ما يشد أزره ، ويمضى عزمه ، ويذهب همه : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ (٥) .

ولهذا ذكّره الله تعالى بما أصاب عبده ورسوله أيوب عليه السلام من البلاء ، وما واجهه به من الصبر ، فقال تعالى :﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ ... ﴾ إلى أن قال :﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً ، نِعْمَ الْعَبْدُ ، إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (٦) .

كما ذكر القرآن الكريم المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ حين اشتد بهم البلاء فى مكة ، وأحدقت بهم الفتن من كل جانب ، بأنهم ليسوا بدعاً فى أتباع الرسل ، وليسوا أول من فُتن فى دينه ، وابتلى فى سبيل الله ، بل

---

(١) الأعراف : ٨٧ (٢) الأعراف : ٨٨ ـ ٨٩ (٣) النمل : ٥٦

(٤) الأحقاف : ٣٥ (٥) الأنعام : ٩٠ (٦) سورة ص : ٤١ ـ ٤٤

هـذه سنة الله فيمن قبلهم : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ (١) ،

ونحو ذلك قوله سبحانه لهم فى المدينة : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ، أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾(٢)

وعلى منهـج القرآن سار النبى ﷺ فى توجيه أصحابه ، إذ ضرب لهم الأمثلة ، بما أصاب المؤمنين من قبلهم ، من ألوان البلاء وكيف غلبوه بالصبر ليكون فى ذلك لهم عزاء وسلوى ، وأسوة .

فعندما ذهب خَبَّاب بن الأرتّ يشكو إليه ضراوة ما يلقى من أذى وفتنة فى دينه هو وإخوانه من المستضعفين وقال : يا رسول الله ، ألا تستنصر لنا ؟ ! ألا تدعو الله لنا ؟ فقال ﷺ : « قد كان من قبلكم ، يُؤخذ الرجل فيُحفر له فى الأرض ، فيُجعـل فيها ، ثم يُؤتى بالمنشار ، فيوضع على رأسه ، فيُجعل نصفين ، ويُمشَّط بأمشاط الحديـد ، ما دون لحمه وعظمه ، ما يصده ذلك عن دينه ، والله ليُتِمَّن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، فلا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون » (٣) .

* * *

٧ ـ الإيمان بقدر الله وسننه :

ومما يُعين المرء على الصبر إيمانه بأن قَدَرَ الله نافذ لا محالة ، وأن ما أصابه لم يكن ليُخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليُصيبه . جفَّت الأقلام ، وطُويت الصحف .

إن الارتكان على الأقدار فى مثل هذا المقام أمر مشروع ومحمود ، لأنه إحالة على القَدَر فيما لا يَـدٌ للإنسان فيه ولا اختيار ، من نوائب الدهر ، ونكبات الأيام . وهذا له أثره فى نفس الإنسان ، حيث يُخَفِّف عنهـا لوعة الأسى على ما فاتها ، والحزن على ما أصابها .

---

(١) العنكبوت : ٢ ـ ٣ (٢) البقرة : ٢١٤

(٣) رواه البخارى وغيره .

وفى هذا يقول القرآن : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِى الأَرْضِ وَلاَ فِى أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ (١) .

وإذا كانت مقادير الله نافذة ، رضى الإنسان أم سخط ، صبر أم جزع ، فإن العاقل ينبغى أن يصبر ويرضى ، حتى لا يُحرم المثوبة ، وإلا فإنه سينتهى رغماً عنه إلى صبر الاضطرار ، الذى ليس له قيمة خُلُقية ولا دينية « إنما الصبر عند الصدمة الأولى » (٢) .

ولقد عزّى أمير المؤمنين علىّ كرّم الله وجهه رجلاً فى ابن له مات ، فقال : يا أبا فلان ، إنك إن صبرت نَفَذَت فيك المقادير ، ولك الأجر ، وإن جزعت نَفَذَت فيك المقادير ، وعليك الوزر .

وقال الأشعث بن قيس : « إن أنت صبرت إيماناً واحتساباً ، وإلا سلوت سلو البهائم » !

وقال حكيم : « العاقل يفعل فى أول يوم من المصيبة ، ما يفعله الجاهل بعد أيام ».

ومما يندرج فى هذا المعنى أن يعلم أن الجزع والهلع والضيق والتبرم لا تُرد ما فات . ولا تحيى ما مات ، ولا تُغَيرّ من قوانين الله فى كونه ، وسننه فى خلقه ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ (٣) .

وإن التسليم بالواقع هو مقتضى العقل والدين معاً ، وإلا فليفعل ما يشاء من إظهار الكآبة والهلع ، والمبالغة فى التوجع والتشكى ، فهل يُغَيّرُ هذا من الواقع شيئاً ؟ وهل يُبَدّل سنن الله فى الكون ؟ بالقطع لا . وإنما يزيد النفس كمداً وغماً .

وإلى هذا المعنى يُشير القرآن فى خطابه للرسول ﷺ حين آذاه موقف قريش منه ، وتكذيب المشركين له ، وقولهم فيه ما يُحرج النفس ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ ، فَإِنَّهُمْ لاَيُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ * وَلَقَدْ

---

(١) الحديد : ٢٢ ـ ٢٣ (٢) رواه البخارى .

(٣) فـاطر : ٤٣ .

كذبت رُسُلٌ مِنْ قَبْلِك فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ، وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّه ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأ المُرْسَلِينَ * وإنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِى نَفَقاً فِى الارْضِ أوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهُدَى ، فلا تَكُونَنَّ مِنَ الجَاهِلِينَ ﴾ (١) .

فانظر إلى الآية الأولي كيف أزالت الوَحشة والحُزن عن قلب النبى ﷺ حين ذكرت له أن تكذيبهم ليس لشخصه ، وإنما هو جحود وتكذيب لربه سبحانه . ثم عَزَّاه الله وواساه ببيان سُنة الرسل من قبله ، فكلهم قُوبلت دعوتهم بالتكذيب وأشخاصهم بالإيذاء ، على ما كُذبوا وأُوذوا ، ولم يجزعوا أو ييأسوا ، حتى جاءهم نصر الله فى النهاية ، وهذه سُنة الله لاتبديل لها. فاصبر ـ يا محمد ـ كما صبروا ، تظفر كما ظفروا .

وإن شَقَّ على نفسك إعراضهم عنك ، وذهبت نفسك عليهم حسرات ، وضاق صدرك بما يطلبون من آيات ، فليس لك إلا الصبر ، وإلا فافعل ما بدا لك ، فإن استطعت أن تبتغى نفقاً فى الأرض تهرب منه ،أو سُلماً فى السماء تصعد عليه ، فدونك فافعل .

ومثل هذه الآية قوله تعالى فى سورة الحج فيمن يئس من نصر الله ، وقنط من رحمة الله وضاق ذرعاً وحرج صدراً : ﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أن لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ (٢) .

ولهذا قيل : الصبر حيلة مَنْ لا حيلة له ، لأن الأمر إذا كان بيد غيرك ، لم يكن لك إلا الصبر عليه ، ولأن الشئ إذا كان لا يأتيك إلا قليلاً قليلاً ، وأنت محتاج إليه ، لم يكن لك إلا الصبر عليه ، وإلا انقطع ذلك القليل .

* * *

٨ ـ الحذر من الآفات العائقة عن الصبر :

ولا بد للإنسان عامة ، وللمؤمنين خاصة ، ولحملة الدعوات على وجه أخص ، إذا أرادوا أن يعتصموا بالصبر ، أن يحذروا من الآفات النفسية ، التى تعوقه وتعترض طريقه . من هذه الآفات التى أشار إليها القرآن :

---

(١) الأنعام : ٣٣ ـ ٣٥ (٢) الحج : ١٥ .

(أ) **الاستعجال** : فالنفس مولعة بحب العاجل ، والإنسان عجول بطبعه حتى جعل القرآن العَجَلَ كأنه المادة التى خُلِقَ الإنسان منها : ﴿ خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ (١) فإذا أبطأ على الإنسان ما يريده نفد صبره ، وضاق صدره ، ناسيا أن للّه فى خلقه سنناً لا تتبدل ، وأن لكل شئ أجلا مسمى ، وأن اللّه لا يَعْجَل بِعَجَلَةِ أحد من الناس ، ولكل ثمرة أوان تنضج فيه ، فيحسن عندئذ قطافها ، والاستعجال لا يُنضجها قبل وقتها ، فهو لا يملك ذلك ، وهى لا تملكه ، ولا الشجرة التى تحملها ، إنها خاضعة للقوانين الكونية التى تحكمها ، وتجرى عليها بحساب ومقدار .

ولهذا خاطب اللّه رسوله بقوله : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَهُمْ ﴾ (٢) أى لا تستعجل للكفار العذاب ، فإن لهم يوماً موعوداً .

وقد كان المشركون لجهلهم وسفههم ، يستعجلون عذاب اللّه ، غروراً منهم وعناداً ، فيرد اللّه عليهم بما يُسكتهم ويُبكتهم ﴿ وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ (٣) ، ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ، وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (٤) .

(ب) **الغضب** : فقد يستفز الغضب صاحب الدعوة ، إذا ما رأى إعراض المدعوين عنه ، ونفورهم من دعوته ، فيدفعه الغضب إلى ما لا يليق به من اليأس منهم ، أو النأى عنهم . مع أن الواجب على الداعية أن يصبر على من يدعوهم ، ويعاود عرض دعوته عليهم مرة بعد مرة . وعسى أن يتفتح له قلب واحد يوماً ، تشرق عليه أنوار الهداية ، فيكون خيراً له مما طلعت عليه الشمس وغربت .

وفى هذا يقول اللّه لرسوله : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُنْ كَصَاحِبِ

---

(١) الأنبياء : ٣٧ (٢) الأحقاف : ٣٥
(٣) العنكبوت : ٥٣ (٤) الحج : ٤٧ .

الحُوت إذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْلاَ أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١) .

وصاحب الحوت المذكور هنا هو يونس عليه السلام ، وقد لقب فى سورة « الأنبياء » أيضاً « ذا النون » ، وإنما أضيف إلى النون أو الحوت ، لأنه التقمه ثم نبذه . وقد أُشير إلى قصته فى « الأنبياء » وفُصِّلت بعض التفصيل فى « الصافات » .

وخلاصتها : أنه أُرسل إلى أهل قرية عرفت باسم « نينوى » بالعراق ، فدعاهم إلى توحيد اللّه ، فأعرضوا ونأوا بميامنهم عنه ، ولم يجد من يستجيب لدعوته منهم ، فسرعان ما فرغ صبره ، وضاق صدره ، فغادرهم ثائراً مغاضباً قبل أن يأذن اللّه له ، ظناً منه أن أرض اللّه واسعة ، ولن يُضَيِّق اللّه عليه ، فإن يكفر به هؤلاء ، فقد يجد فى غيرهم المؤمنين الصالحين .

واندفع وراء غضبه على القوم ، حتى انتهى إلى شاطئ البحر . فوجد سفينة مشحونة مملوءة بالركاب . فركب فيها ، حتى إذا كانت فى عرض البحر ثقلت وأوشكت أن تغرق ، فاقترح ربَّانها إلقاء واحد من ركابها فى البحر ، لتخف وينجو الباقى ، فساهموا ـ أى اقترعوا ـ على ذلك ، فكانت القُرعة على يونس ، وأُلقى فى البحر ، ليلتقمه حوت عظيم ، لبث فى بطنه أياماً لا يعلمها إلا اللّه . وفى هذا الكرب والضيق والظلمات المتراكمة : ظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت ، وظلمة الليل ، نادى يونس ربه : ﴿ أَنْ لاَ إِلَه إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) فاستجاب اللّه له ونَجَّاه من الغم . فلفظه الحوت على الساحل ، ونُبِذَ بالعراء وهو سقيم ، وأنبت اللّه عليه شجرة من يقطين . وأرسله إلى قوم آخرين ، فآمنوا فمتعهم اللّه إلى حين .

والشاهد هنا : أن اللّه يُحَذِّر خاتم رسله محمد صلى اللّه عليه وسلم من

---

(١) القلم : ٤٨ ـ ٥٠ .

(٢) الأنبياء : ٨٧

الاستجابة إلى داعى الغضب ، الذى قاد يونس إلى ما قَصَّه اللّه عليه ، وجَرَّ عليه من البلاء ما جَرَّ ، وإنما عليه أن يصبر لحكم ربه ، ويثبت على دعوته ، ويتحمل أعباء رسالته ، ولا يندفع وراء انفعالاته ، وإنما ينتظر أمر مولاه ، ويترقب فى النهاية نصر ربه .

(جـ) شدة الحزن والضيق مما يمكرون . فليس أشد على نفس المرء المخلص لدعوته من الإعراض عنه ، والاستعصاء عليه . فضلاً عن المكر به ، والإيذاء له ، والافتراء عليه ، والافتنان فى إعناته ، وفى هذا يقول اللّه لرسوله : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ ، وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِى ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (١) ، ثم يؤنسه بأنه فى معيته سبحانه ورعايته فيقول : ﴿ إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ (٢) .

ولقد بلغ الضيق والحزن بالنبى ﷺ من إعراض القوم وتعنتهم وافترائهم مبلغاً جعل القرآن يخاطبه فى لهجة حاسمة ، فيقول : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ، إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ، وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (٣).

وفى مواضع أخر يقول ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٤) ، ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً ﴾ (٥) ، ﴿ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ، إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (٦) .

وفى مقام آخر يقول فى أسلوب صارم : ﴿ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِىَ نَفَقاً فِى الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِى السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ ، وَلَوْ شَاءَ اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ، فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٧) .

---

(١) النحل : ١٢٧ — (٢) النحل : ١٢٨

(٣) هود : ١٢ — (٤) الشعراء : ٣

(٥) الكهف : ٦ — (٦) فاطر : ٨

(٧) الأنعام : ٣٥ .

وفى موضع آخر : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَـنْ فِى الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً ، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ؟ ! (١) .

فالإيمان والكفر والهدى والضلال ، كلها واقعة فى الوجود بمشيئة الله تعالى لهذا الكون ، وأجرى بها أقداره ، فينبغى مراعاة هذه السُنن لا مغالبتها فإنها غَلّابة وهذا كله تعليم للدعاة الى الله وتنبيه لهم إلى أن تقوم الساعة .

(د) اليأس : فهو من أعظم عوائق الصبر ، فإن اليائس لا صبر له ، لأن الذى يدفع الزارع إلى معاناه مشقة الزرع وسقيه وتعهده ، هو أمله فى الحصاد ، فإذا غلب اليأس على قلبه ، وأطفأ شعاع أمله ، لم يبق له صبر على استمرار العمل فى أرضه وزرعه .وهكذا كل عامل فى ميدان عمله ، وصاحب الدعوة والرسالة كذلك .

ولهذا حرص القرآن على أن يـــدفع الـــوهم عن أنفس المـــؤمنين فبذر الأمـــل فى صـــدورهم : ﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (٢) ، ﴿ فلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ (٣) .

ولما أمر موسى قومه بالصبر إزاء طغيان فرعون وتهديده ، أضاء أمامهم شعلة الأمل ، فقال : ﴿ اسْتَعِينُوا بِاللَّه واصْبِرُوا ، إِنَّ الأَرْضَ لِلَّه يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ، قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (٤) .

---

(١) يونس : ٩٩
(٢) آل عمران : ١٣٩ ـ ١٤٠ .
(٣) محمـــد : ٣٥
(٤) الأعـراف : ١٢٨ ـ ١٢٩

ولما شكا خَبّاب بن الأرت إلى النبى ﷺ ما يلقى من أذى المشركين ، شكوى تحمل معنى الضيق والتبرم ، ضرب له النبى ﷺ مثلاً بما لقيه المؤمنون فى الأزمنة الماضية ، ثم طرد عن قلبه اليأس ، وزرع فيه الأمل الخصب ، حين أخبره أن الله سيُتم هذا الأمر حتى يسير الراكب من أقصى الجـــزيرة إلى أقصاها ، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه !!

وما ذلك إلا لأن الأمل أكبر معوان على الصبر على طول الطريق ، ومشقاته ، وأن اليأس من أعظم المعوقات عن الصبر .

* * *

وفى الختام : نسألك اللّهم أن ترزقنا الصبر على طاعتك ، والصبر عن معصيتك ، والصبر على أقدارك ، والصبر على أذى خلقك ، والصبر على مشاق الدعوة اليك ، حتى نكون من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر .

واجعلنا اللّهم من الصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، والصابرين فى السَّراء والعافية ، واجعل صبرنا فيك ولك ، حتى نكون من الذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ، وكانوا أهلاً لجنات عدن ﴿ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، وَالمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [1] .

* * *

(١) الرعد : ٢٣ - ٢٤

محتويات الكتاب

الصفحة

المقدمة ٣

الفصل الأول :حقيقة الصبر فى القرآن وضرورته وحكمه

(٧_٣٤)

كم ذكر الصبر فى القرآن ٧

أنواع الصبر فى القرآن ٨

الصبر خصيصة إنسانية ١٠

ضرورة الصبر ١٢

ضرورة الصبر للمؤمنين ١٤

ضرورة المحن لأهل الإيمان ١٨

ضرورة الصبر لرسل الله ٢٠

أوامر الله لرسوله بالصبر ٢١

حكم الصبر ٢٩

الباعث على الصبر ٣٢

المؤمن مأمور بالمصابرة بعد الصبر ٣٢

الصبر المحمود ما كان فى أوانه ٣٤

الفصل الثانى :مجالات الصبر فى القرآن

(٣٥ _ ٥١)

الصبر على بلاء الدنيا ٣٥

الصبر على مشتهيات النفس ٣٥

الصبر على طاعـــه الله ٣٩

الصبر على مشاق الدعوة إلى الله ٤١

الصبر حين البـــأس ٤٥

الصبر في مجال العلاقات الإنسانية ٤٨

الصفحة

الفصل الثالث : منزلة الصبر والصابرين فى القرآن
(٥٢-٦٢)

اقتران الصبر بالقيم الروحية فى الإسلام ٥٢
مكانة الصابرين وموضعهم فى أهل الإيمان ٥٨
ترتيب خيرات الدنيا والآخرة على الصبر ٦٠

الفصل الرابع : شخصيات صابرة ذكرها القرآن
(٦٣-٨٠)

أيوب ٦٣
يعقوب ٦٥
يوسف ٦٧
صبر الذبيح إسماعيل ٧١
صبر أولى العزم من الرسل ٧٣

الفصل الخامس : مايعين على الصبر فى القرآن
(٨١ - ١٠٢)

المعرفة بطبيعة الحياة الدنيا ٨١
معرفة الإنسان نفسه ٨٣
اليقين يحسن الجزاء عند الله ٨٥
اليقين بالفرج ٨٧
الاستعانة بالله ٩٢
الاقتداء بأهل الصبر والعزائم ٩٢
الإيمان بقدر الله وسننه ٩٥
الحذر من الآفات العائقة عن الصبر ٩٧
محتويات الكتاب ١٠٣

* * *

رقم الايداع بدار الكتب : ٤٠٨٨ /٨٩

الترقيم الدولى : ١/ ١٨٧/ ٣٠٧ / ٩٧٧

هـذا الكتاب

● « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » (قرآن كريم) .

● بهذا القدر وبهذه المنزلة وعد الله عباده الصابرين .. ترى أى أنواع الصبر الذى له هذه الدرجة ؟ ..

ومن هم الصابرون الذين يستحقون هذه المنزلة ؟ ..

وهل الصبر نوع واحد .. أم أنواع متعددة ؟ ..

● وهذا الكتاب « **الصبر فى القرآن** » يوضح لنا أنواع الصبر المختلفة ، التى وعد الله عباده هذه المنزلة الفريدة ، فيبين « **حقيقة الصبر فى القرآن وضرورته** » . ثم يشرح ما هى « **مجالات الصبر فى القرآن** » . ثم يصور لنا « **منزلة الصبر والصابرين فى القرآن** » . ثم يعطينا الأمثلة والنماذج « **لشخصيات صابرة ذكرها القرآن** » . ثم يرشدنا إلى « **ما يعين على الصبر فى القرآن** » .

● **والدكتور يوسف القرضاوى ــ مؤلف الكتاب ــ** انتهج نهجاً جديداً . حيث حصر موضوعاً واحداً من موضوعات القرآن الكريم ، وألقى عليه الأضواء ، بعلمه وفقهه الغزير ، وأفقه الواسع ، وبأسلوبه السهل الرفيع . فأضاف إلى المكتبة الإسلامية موضوعاً فريداً فى بابه ..

● ويسر « مكتبة وهبة » أن نقوم بنشر هذا الكتاب للاسترشاد به على التعرف لأنواع الصبر فى مجالات الحياة المختلفة .. وبالله التوفيق .

